– أخبرني إذاً، ألم تُعرّبك هذه الأشهر الخمسة من السجن بعد، إنك تستحق عقاباً رادعاً!

بهذه الكلمات، حاول أن يوجه قبضته الى رأسي ولكن المدير منعه من ذلك قائلاً:

– كلا سنعفيك هذه المرة من اللكمات، ولكن في المرة القادمة، سنعرف كيف نلين عظامك. وإستدار نحوي صارخاً:

–إنصرف الآن، أيها الكلب الأجرب! إياك أن ترتكب ثانية مثل هذه الحماقة. وقبل أن يكون لديّ الوقت للمقاومة، إستولى عليّ شرطيان ليأخذاني الى المهجع. وكان جميع السجناء يقظين لمعرفة مصيري. فقلت لهم:

– مامن خطر، ناموا براحة بال وسأحدثكم عن الأمر غداً.

فإختفت رؤوسهم تحت الأغطية. وبعد قليل دوت أصوات الشخير من كل الجهات. أما من جهتي فلم أجد الى النوم سبيلاً. فقد كان هذا الحادث الجديد يؤلمني. فهم لم يغتصبوا حقي كمواطن فقط، وإنما أهانوني وهددوني بأسوأ أعمال العنف لأنني قمت بذلك، ولم تقم السلطات بتلك التصرفات سوى بسبب إنتمائي القومي. ألم يكن ينبغي لي أن أذكر هذه الحالة من التمييز العنصري لرئيس المحكمة؟ فكرت بذلك طوال الليل. وفي الغد دونت على الورقة كل موضوع البرقية، كما كتبت رسالة خاصة الى رئيس المحكمة طالبته فيها بإضافة الحادث الى الحوادث السابقة التي سلمتها له. وبعد يومين وبينما كان السجانون يستعدون لنقلنا الى المحكمة، أخرجت المستندين من جيبي وسلمتهما الى الرقيب (زين العابدين) قبل أن يبدأ تفتيشه. وحينما ذُعر بمضمونهما، رمقني بنظرات متوهجة وهرع الى المدير بسرعة وهو يزرر سترته وصاح بصوت أجش:

– إنك تريد حقاً أن تخلق لنا المتاعب، أليس كذلك؟ سيكلفك ذلك كثيراً، كثيراً جداً، صدقني! فأجبته بهدوء:

– سأناضل ضد جميع أشكال الظلم قدر إستطاعتي.

– كن على يقين بأنك ستُكافأ على ذلك لدى عودتك من المحكمة.

وخُصصت جلسة المحكمة لمرافعة أحد محامينا. وبما أن الرئيس لم يكن ينبس ببنت شفة حول شكواي، سألته ما إذا كانت إدارة السجن قد سلمته مستنداً من جهتي، فأجابني بغموض ولهجة الموافقة.

– أرجوك أن تسرع في قراءته وتأخذني تحت جناحك لأنه لدى عودتي الى السجن، فإن المدير ومرؤوسيه سيلقنوني درساً لأنني أطلعتك على هذا الحادث. فأجاب وهو يسرع بإغلاق حقيبته ومغادراً المكان:

–لا لن يكون هناك ما تقول.

وكان الرقيب (زين العابدين) أمام مكاتب السجن ينتظرنا وأنيابه بارزة ككلب الحراسة وصرخ بملء رئتيه:

– من الآن فصاعداً ستخرجون جميعاً الى السخرة ولن يعفى منها أحد. وبعد ذلك فتشنا بشراسة وأعادنا الى مهاجعنا ثم منحنا عشرين دقيقة لتناول طعامنا وصاح:

– جميعكم الى السخرة!

فأسرع جميع السجناء بما فيهم سجناء مهجعنا الى خارج الحجرات وإصطفوا على طول الممر، وعلمت بأن الإدارة كانت تريد هكذا أن تثأر من الأضرار التي سببتها لها. وبما أنني لم أخرج من المهجع ثابرت على موقفي، فدنا الرقيب مني وقال:

– ولم لست في السخرة كالآخرين؟ فأجبته:

– لأنني ببساطة لست هنا لهذا النوع من العمل، فصاح:

– أنت هنا في سجن عسكري وعليك إطاعة الأوامر التي تعطى لك، ستخرج على الفور وإلا سأعاقبك وأحذّرك إن لم تخرج فستتلقى ضربات سوطي على رأسك. فقلت بهدوء وبصوت حازم:

– لن تستطيع بسوطك هذا أن تخضعني لإرادتك. فأنزل الرقيب ذراعه ورمقني بنظرة حانقة قائلاً:

– سنرى جيداً لمن ستكون الكلمة الأخيرة هنا!

نفّذ السجناء الآخرون أوامر الرقيب بلا إعتراض وعادوا هرولة الى مهاجعهم. وكان الجميع يريدون أن يروا حال ذلك السجين الذي تجرأ على أن يتحدى ضربات الجلاد (زين العابدين)، أي أوامر إدارة المزة، وإقترب سجناء المهاجع الأخرى من نوافذنا لمعرفة الأخبار. وخلال ستة أيام متتالية، جدد الرقيب هذه البلبلة وهو يرفع يومياً سوطه ويوجه تهديداته ويخضع كل سجين الى توتر غير ثابت. بقيت هادىء الأعصاب في مواجهة تحذيرات وتخويفات وشتائم وزوابع رجال شرطة زين العابدين. وأمعنت النظر الى الجلادين وأنا اكز على أسناني وبقيت جالساً بثبات على بطانيتي الصوفية، وأرى الجهد العصبي والعضلي الذي كانت إرادة المقاومة هذه تحتاج له، وذات يوم أدت الى تشنجات في ظهري وخاصة في الكليتين وكانت هذه التشنجات قوية جداً ومتواصلة حتى إن كل جسدي كان يضطرب من الإرتعاش. وغداة اليوم التالي جابهت الرقيب والسجانين مرة أخرى. وفي اليوم السابع قرر زين العابدين التغلب على مقاومتي، فأراد فجأة تنظيف السجن بكامله وأمر جميع الجنود السجناء أن يتزودوا بالمكانس والسطول، وكان في ذلك الوقت قد إرتدى بزته وثار على طريقة القائد العام للجيش أثناء الحرب بصوته المجلجل وأوامره القاسية. وبعد ان أثار هذا المشهد، أرسل شرطياً الى مهجعنا ليبلغني أن الإدارة تطلبني. وحينما مررت عبر صفوف الجنود السجناء، وصلت الى

باب ضخم يفصل بين الإدارة وبين القسم المخصص للسجناء، وكان هناك زين العابدين يظهر بمظهر الفاتح. وبينما كنت أتجه نحو مكتب الإدارة سد عليّ الطريق وهو يقول:

- والآن ستأخذ إحدى هذه المكانس وتذهب مع الذين تجمعوا هناك ليكنسوا وينظفوا باحة الإستراحة الكبرى. فقلت له:

- لا لن أذهب. فصاح وهو يضرب بقبضته على وجهي:

نعم ستذهب. فقلت في نفسي "لو أنني ضُربت هذه المرة فسأستعمل يدي" ولكنه في اللحظة التي كنت أستعد لمبادلته لكمة بلكمة رأيت المدير منفرداً في مكتبه ويحيطه العملاق (أبو العبد) ومجموعة من رجال الشرطة. فإمتنعت حينئذ عن رفع يدي على أحد مسؤولي المزة الكبار، وحاولت أن أرخي عضلات ذراعي وأتحمل ضربات الرقيب دون أن أتفوه بكلمة. وتابع قائلاً وهو يطرق وجهي:

- ستنظف الباحة. فأجبته دون توقف:

- لا، أبداً.

لقد أُنهك الرقيب دون شك من ضربي ولولا أن المدير يأتي ويحل محله، فسأل الرقيب بسذاجة:

- ماذا هناك؟ ما الذي جرى؟

- هذا السيد يرفض الذهاب الى السخرة.

- آه، نعم، دعه لي سأتولى أمره شخصياً وأتصرف لدرجة أنه لن يتحسر أبداً على جسارته.

بهذه الكلمات أمسك ذراعي وجرني الى باب مكتبه. وظهر عشرة من رجال الشرطة من كل الزوايا وأحاطوا بي. وإستقر العملاق (أبو العبد) الى يميني وهو يستعد للتدخل. ولهذا الظرف كان المدير قد جند أيضاً خمسة عشر ضابط صف حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة بالسجن والسخرة في مختلف أعمال الإدارة. ثم تحت أنظار الفضول الشاخصة لكل هؤلاء الناس، بالإضافة الى أنظار خمسين من السجانين الآخرين المسلحين بالسياط، بدأ المدير يجلدني بالسوط بعنف وهو يشتم بصوت عال مثل الفولكلور العربي فقد شملت هذه الشتائم أبي وأمي وأخواتي وأسلافي وأخلاقي وشعبي وأمتي. وضربني (علي عيسى)[٧١] بهياج غريب وإستطاع أن يجلدني مائة جلدة دون توقف. وفي الضربة المائة، وبما أنني كنت واقفاً منتصباً على قدميّ بثبات، لاأتذمر ولاأتكلم ولاألتمس الشفقة، تخلى مدير السجن عن سوطه وشدد قبضته ووجه لطمة بيمناه الى فكي. كانت الضربة عنيفة جداً حتى شعرت أن الأرض تنزلق فجأة من تحت قدمي وأنني أتدرب معها. وحينما ثبت الى رشدي، كنت في

مستوصف السجن، وكان العملاق (أبو العبد) يرغمني على شرب دواء مر كان يشبه الكحول كثيراً. وسمعته يقول لي :

– هيا، إشرب، إشرب الكأس كلها بسرعة. سيساعدك ذلك على إستعادة قوتك. آه، أنتم الكورد أعرفكم حق المعرفة. فحينما تقولون (لا) فإنه (لا) حقاً. لاأستطيع أن أفعل شيئاً ولانستطيع أن نجعلك تقول (نعم). وكان يهز رأسه من اليسار الى اليمين إشارة الى عجزه وعدم قدرته في مواجهة حزم وثبات الكورد. وكانت تلك الضربات قد جعلتني في حالة يرثى لها.

لقد كسرت إحدى أسناني وأدمي فمي وتورم فكي الأيسر كثيراً وأصيب برضوض حتى إنني كنت أجد صعوبة على الكلام، إضافة الى ذلك كان ظهري يحترق ويقطع تنفسي كما لو كان صدري قد ضيّق بمكبس عملاق. وكان الرقيب الممرض يختلف عن بقية الموظفين العسكريين في السجن بهدوئه ورقته ودأب على معالجتي وهو يبذل أقصى جهده، وقد جعلني أتمضمض بشراب مختّر وضمد وجهي وجعلني أبلع حبوباً مانعة للحمى ودهنني بصبغة اليود. وما إن إنتصبت واقفاً حتى ساعدني في الوصول الى مهجعي. وكانت الضربات المتواصلة التي وجهها إليّ المدير، قد أثارت قلق جميع سجناء المزة. وبينما كنت أجتاز المهجع، سارعوا الى النوافذ ليروني ويعبروا لي عن تعاطفهم بالرغم من صراخ وتهديدات السجانين. وكان السجناء في مهجعي قد ذهلوا كما لو كانوا هم الذين تعرضوا لهذه اللكمات، حتى إن بعضهم كان يذرف دموعاً ساخنة والبعض الآخر يضربون صدورهم معبرين عن سخطهم الجلاديّ:

– لقد تجرأوا على أن يفعلوا بك هذا، هؤلاء الوحوش القذرون.

أما بالنسبة لـ(عدنان وادي)، كان شاباً من الحي الكوردي حكم عليه بالسجن ثلاثة أعوام لأنه حاول منع مجموعة جنود من إغتصاب إمرأة في شوارع دمشق المقفرة، فقد كان يشهق كالأطفال وهو يقضم أظافره، ويقول:

– لو كنت أملك رشاشاً كهؤلاء الأوغاد لقتلتهم جميعاً.

حاولنا أن نهدئه قليلاً، ولكن بالرغم من إنه كان نائماً، فقد كان يتأوه ويوجه شتائم الى (ناصر) والى (عبدالحميد سراج) والى مكاتب المعلومات الخاصة، والى القضاة والى مدير السجن ومرؤوسيه. أما بالنسبة لي، فبعد قليل من إغلاق الأبواب، أصابتني حمى حارقة جداً حتى بدأت أسناني تصطك وشرعت أهذي. وأخبر جاري في السرير السجان الخفر عن حالتي. وفي وقت متأخر من الليل، جاء الرقيب الممرض ليحقنني بإبرة وجعلني أبلع أدوية منومة.

وفي الغد، لاقيت صعوبة في النهوض. فقد كان ظهري وعنقي وكتفاي تؤلمني كثيراً، حتى إستحال عليّ أن أحرك القسم العلوي من جسدي. وطلبت نقلي الى المشفى. ولكن خوفاً من

أن يكتب الطبيب المعالج تقريراً يسرد أسباب حالتي، رفضت الإدارة طلبي بحجة أن ممرض السجن قد بذل قصارى جهده في تقديم العناية الضرورية لي. وفي يوم السبت، وبما أن وجهي كان لايزال يبعث على الشفقة وكان ظهري يشبه قطعة من اللحم المشوي المفحّم، لم نُنقل الى المحكمة. وإهتم الرقيب الممرض بإخلاص بحالتي وعمل كل ما بوسعه لكي تختفي آثار أعمال العنف التي كنت ضحيتها. وخلال عشرة أيام، إختفى الورم من الوجه ولكن الظهر والكتفين أبت أن تعود الى حالتها الطبيعية وظلت مائلة الى السواد وخلال أكثر من شهرين، واليوم أيضاً، أشكو من آثار مائة جلدة بالسوط على الكتفين. وكان يحدث لي أحياناً أنني أحلم بسجن المزة، فكنت أرى رجال الشرطة العسكرية مكشرين عن أنيابهم وبيدهم سياط كبيرة وهم يهددونني، كان ذلك الكابوس الذي يرعشني. وفي السبت الثاني بعد الحادث، جمعتنا سلطات السجن لتنقلنا الى المحكمة. وذكرت سوء المعاملة التي تعرضت لها، فنزعت قميصي لأُظهر ظهري للرئيس الذي بدا أنه تأثر بهذا المشهد ولكنه تصرف كإنسان آلي، وقال:

– في الواقع، لقد سمعت عن هذه القصة، إنها قديمة وليس من الضروري إشعال الفتيل ثانية. إن الجمهور المكون معظمه من الكورد حاول المقاومة لكنه أُبعد من قبل الشرطة العسكرية. أما نحن فقد وجدنا أنفسنا بعد قليل في السجن، وحينما علم (زين العابدين) بتصرفي في المحكمة، غضب مجدداً وحاول الإنتقام. ومع ذلك فقد صرفَته عن ذلك مكالمة هاتفية من قبل إدارة الشرطة العسكرية المسؤولة عن سجن المزة في اللحظة الأخيرة. أخيراً حان وقت المرافعات. لقد قدّم محامونا الكورد والعرب مرافعاتهم كلها بشجاعة مدعّمة بالأدلة إستناداً الى لا معقولية ومبالغة الأعباء المفروضة علينا. ماذا فعلوا ليقعوا تحت طائلة القانون؟ هل كانوا عملاء لدولة أجنبية؟ هل إرتكبوا جرائم الخيانة العظمى باللجوء الى العدو أو تحويل أسرار خاصة بالدولة؟ فصاح محام عربي:

– كلا، لاشيء من ذلك، إنكم ترون أمامكم سيدي الرئيس، السادة أعضاء المحكمة، أناساً شرفاء ومثاليين حقاً، يطلبون إحترام لغة وثقافة وتقاليد الشعب الكوردي وتطويرها، وهذا كل ما في الأمر. لقد أنقذنا هذا الشعب الباسل والأمين المقاتل في ألف محنة ومحنة. أنقذنا من إبادة فظيعة، ولكي نقنعكم بذلك، فما علينا سوى أن نقرأ تاريخ البطل (صلاح الدين الأيوبي). وسألت شخصية مرموقة من محامي دمشق:

– لماذا نمنع الكورد من أن تكون لهم مدارسهم باللغة الكوردية في حين أننا نمنح هذا الحق الى اليهود والأرمن والسريان؟ إن عدد الكورد في سورية هو أكبر بكثير من تلك الأقليات ويسكنون بصورة متماسكة في شمال البلاد. فهل من العدل منح حقوق ثقافية للطوائف الحاملة للطابع الديني ورفضها لكيان قومي هام؟ لقد ورثنا هذه السياسة من السلطة المنتدبة. وهل من المنطق أن نتمسك بها بعد خمسة عشر عاماً من الإستقلال؟

وجاء بعد ذلك دور أحد المحامين الكورد من حلب:

– منذ ثمانية قرون، جاء الكورد الى سورية كمنقذين، وكان الشرق الأدنى بما فيه مصر، يشمل فلسطين ولبنان، يقع ثلاثة أرباع منه تحت الإحتلال الفرنسي- الإنكلوسكسوني. فكيف تسمح اليوم دولة، تجمع مصر وسورية، لنفسها بإضطهاد أحفاد شعب ضحى بدمه بغزارة لتحرير وحماية سورية في أحلك الساعات المأساوية التاريخية؟ إن إخضاع الكورد لسياسة التعريب القسري، هو إحتقار للتاريخ والعدالة والأخلاق وأيضاً للتقاليد الديمقراطية القديمة للشعب العربي. وهذا ما يمهد الطريق للعنصرية، الى التمييز التعسفي والمخاطرات الفاشية. فكروا ملياً بكل ذلك، أيها السادة الأعضاء قبل أن تصدروا أحكامكم!

وبعد أسبوع من تقديم المحامين لمرافعاتهم، منحتني المحكمة إذناً بالتعبير عما يجول في نفسي. فأظهرت نشاطي المناهض للإستعمار منذ نعومة أظافري، حينما كنت طالباً في ثانوية فرنسية، أثناء إقامتي في سويسرا حيث أسست في البداية جريدة (العربية)(٧٢). فوصفت الديمقراطية كثيراً في فرنسا ووحدة هذا البلد بأغلبيته، والتعايش السلمي لشعوب عديدة ذات لغات وثقافات وعادات وعقائد مختلفة. وأوضحت أصالة وقوة وغنى وفعالية سويسرا.

كما عرضت أيضاً المنافع التي كانت سورية ستجنيها بإحترامها الخصوصيات اللغوية والثقافية لسلالاتها المختلفة وهي تفتح لها الطريق لتندمج في الثقافة العربية وتغنيها بدلاً من أن تعارضها لشوفينية متصلبة، ضيقة ومنطوية على نفسها.

وبالرغم من الحركات والتكشيرات الإنكارية للقاضي، فقد أثارت دلائلي بشكل إيجابي شعور القضاة الذين إستغرقوا حينئذ في تأمل طويل. أما من جهة أصدقائنا في الخارج، الذين رغبوا تجنب إنقضاض السلطات المصرية والسورية علينا، فقد إستطاعوا تنظيم حملة إحتجاجات واسعة، فكورد العراق الذين كانوا على علاقة جيدة مع (قاسم)، طعنوا ناصر ونظامه، وسارت وفود كثيرة على شكل أرتال خلال أيام كاملة أمام سفارة الجمهورية العربية المتحدة في بغداد تطالب بإطلاق سراحنا. وفعل كورد لبنان ذلك في الصحافة اللبنانية ذات النزعة الديمقراطية ولدى سفارة الجمهورية العربية المتحدة في بيروت. وأوصل أصدقاء وأنصار سويسريون عرائض موقعة من قبل مئات المثقفين والأدباء والفنانين والعلماء المشهورين الى السلطات المصرية- السورية. وكان أحد أصدقائي المخلصين محامياً ومستشاراً قومياً سويسرياً وهو (گيلبرت بايشتولد)، أبدى عزمه للمجيء والدفاع عني أمام المحكمة العسكرية في دمشق، وذلك مع أصدقاء سويسريين آخرين. وأبدى كورد فرنسا وألمانيا والسويد وبلجيكا وإنكلترا وإيطاليا، بالإضافة الى أصدقائهم ومعارفهم تضامنهم، وطالبوا ممثلي الجمهورية العربية المتحدة في بلادهم بإطلاق سراحنا. وأدت كل هذه التدخلات والعرائض الكثيرة الى تخفيف عنف السلطات السياسية تجاهنا. فأحكام الإعدام والسجن مدى الحياة والسجن من (٧ الى ١٥) عاماً خففت الى عام ونصف عام والى سبعة أشهر من السجن.

وبفضل تلك التواقيع، نجوت من حبل المشنقة وبعد ستة أشهر من الإقامة في المزة، كان

عليّ أن أنقل بالإضافة الى رفاقي في الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، الى سجن دمشق المركزي الذي لم يكن سوى قلعة قديمة بناها صلاح الدين(٧٣). وكانت المحكمة قد أصدرت حكمها في ٥ آذار ١٩٦١، وعشية الخامس عشر منه، أمرتنا إدارة المزة بالإستعداد للرحيل. إن فكرة مغادرة سجن يقع خارج المدينة على مرتفعات دمشق، يديره نظام عسكري ويخضع لأهواء رجال الشرطة الجلادين، والتوجه الى سجن مدني يقع في مركز المدينة تديره شرطة إدارية معروفة بلا مبالاتها ومحبتها للأقارب، كانت تفرحنا جميعاً. لقد كنا نسرع أيضاً بترتيب أغراضنا وتوزيعها على الجنود السجناء. فكان المحرومون منهم الذين يطلبون بضعة قروش لقاء قيامهم لنا ببعض الخدمات، حزينين لفكرة مغادرتنا. وكان الآخرون يهنئوننا لأننا نجونا من وحشية وسادية علي عيسى وزين العابدين وأبو زاتور، أما (عدنان وادي) صديقنا الشاب من الحي الكوردي، فقد أصيب بكرب لأنه لم يعتقل ويحكم عليه لنفس السبب الذي إعتُقلنا من أجله، وكان ينتحب ويقول:

– لن يدوم هذا النظام طويلاً، وسيطلق سراح كل الذين أُصدرت عليهم أحكام وستثبت براءتهم. وبمثابة تسلية له، كنا نقول له:

– سنرى بعضنا بعضاً خارج القضبان الحديدية أحراراً لكي نخدم شعبنا والإنسانية، سنعمل معاً لتحقيق مشاريع عظيمة. ولكن بإنتظار ذلك يجب أن تستفيد من إقامتك في السجن لمتابعة دراستك وتقديم إمتحاناتك.

وبعد أن أتمت إدارة سجن المزة إجراءات النقل والخروج، حشدتنا في عربة سجن محروسة بشدة بإتجاه المدينة. ومن خلال النوافذ الصغيرة المزودة بالشباك، كنا ننظر كما لو كنا في حلم، الى الناس الذين كانوا يتجولون في الشوارع والساحاتَ العامة. في سوق الخجا وهو أحد الأماكن الحيوية في دمشق، كان التجار والباعة المتجولون والمشترون والبائعون لكل أنواع البضاعة، يتجهزون فيه، وإستطاعت السيارة بضربة منبه أن تصل الى البوابة التذكارية لقلعة صلاح الدين ورجال الشرطة الذين أُخبروا بوصولنا، سمحوا لنا بالدخول الى الباحة الخارجية وقاموا بعد ذلك بإدخالنا الى الداخل. وفي مكتب صغير ذي جدران مغطاة بالملفات، كان هناك موظف مدني يجلس أرضاً خلف طاولة كبيرة لايبدو منه سوى رأسه الكبير الأصلع وذراعاه المغطيان بالفرو الأسود، إستقبلنا الواحد تلو الآخر من أجل إجراءات التسجيل، ثم بُعثرنا في مراقد السجناء المحكوم عليهم بالسجن لمدة عامين كأقصى حد.

وُضعت بصحبة ثلاثة من رفاقي في النضال في المرقد الواقع تماماً مقابل المكاتب المخصصة للإدارة. والعقيد (وحيد برازي) وهو كوردي من حماة، كان يشغل حينئذ منصب المدير. فمن ضابط صف في الجيش، حُوّل الى الشرطة بسبب تفريغ رشاش في بطنه أثناء هجوم دورية إسرائيلية عام ١٩٥٨ على حدود الجولان. وبالنسبة للذين كانوا يشكون بشجاعته وبإخلاصه لوطنه، لم يكن يضيّع أبداً فرصة كشفه عن بطنه المشوه. وبدا متحفظاً جداً وحذراً تجاهنا، وهو

يخشى دون شك تعليق أهمية كبيرة لعرائضنا ولمطالب أصدقائنا في الخارج الذين كانوا يعرفونه عن كثب. كان يعلم أحياناً إظهار الشجاعة والحيوية. وفي القسم المخصص للمحكومين الكبار، إستطاع أن يُدخل طرقاً جديدة بتنظيمه الى فئات ذات مستويات تطبق المنهاج الرسمي وأختير المعلم قدر الإمكان من بين السجناء. وسارعت مع بعض من أصدقائي المجازين بتقديم خدماتنا من أجل مناصب (المعلمين) الشاغرة في السجن. ولكن طلبات ترشيحنا رُفضت "بسبب وضعكم كسجناء سياسيين". وبمبادرة من العقيد البرازي، شكّل السجناء فرقاً لكرة الطائرة والسلة ورُفض أيضاً طلب إنضمامي لأحد هذه الفرق لنفس الأسباب.

ولم تكن هذه الإجراءات العنصرية بحقنا هي وحدها التي تزعجنا. وبما أن أسرة مرقدنا كانت مجاورة تماماً للمراحيض المكشوفة والمجردة من الأبواب والمتعفنة، فقد توسلنا للإدارة بنقلنا الى جهة أخرى أو السماح لنا بشغل الأسرة الواقعة مقابل الباب الحديدي للمرقد. فأجبنا بأن المراقد كانت مكتظة وأنه يجب علينا أن ننتظر دورنا لكي يمكن تقريبنا من الباب بصورة تدريجية. في هذا الصدد ليس هناك شيء إفتراضي، فكلما كان سجين يترك مكانه لقضاء حاجته، كان عدة سجناء يسرعون فوراً للإستيلاء على سريره، وكان ينجم عن ذلك مشاجرات حقيقية. وكانت جماعات بأكملها تتقاتل. وكان علينا أن نصبر شهرين أو أكثر وبعد أن رشونا الرقباء بسخاء، إستطعنا أن ندنو من الباب ونستنشق الهواء النقي.

كانت لهذا السجن منافع كثيرة بالمقارنة مع سجن المزة. فمنذ الثامنة صباحاً، كانت الأبواب تُفتح حتى الظهر ومن الثانية بعد الظهر حتى السادسة مساءً، وخلال الإستراحات كنا نستطيع أن نلتقي بالناس من مختلف الأوساط ومن جميع أنحاء سورية. فقد كانوا يحدثوننا عن الجنح والجرائم التي إرتكبوها وكان معظمهم ضحايا القدر والسذاجة أو ضحايا ظروفهم العائلية والإجتماعية مثل ذلك التعيس من الحي الكوردي في دمشق، حُكم عليه بالسجن لمدة سبعة أعوام بسبب قتل أخيه غير المتعمد وللظروف الإجتماعية والإنسانية التعيسة. وكذلك السجن لمدة عامين لهذا الموظف اللئيم والمذنب الذي إختلس من الدولة مايعادل (٢٠٠) ألف فرنك سويسري، ولم يكن مسروراً بوضع أمواله المسروقة في مكان مخفي، فقد تابع هذا الرجل المشؤوم التصرف كموظف وكسب المال وهو ينتحل دور كاتب شعبي حتى في باحة السجن. فكان يجلس على مقعد صغير خلف طاولة سهلة الطي، ويكتب عرائض ورسائل للسجناء الأميين أو غير القادرين على التحدث مع الأوساط الرسمية. وظهر من بين السجناء أيضاً عدد كبير من غاسلي العار العائلي[٧٤] هكذا كانوا يُسمون، إنهم الآباء الذين كانوا قد قتلوا بناتهم أو الإخوة الذين ذبحوا أخواتهم "المذنبات" لأنهن خرقن قانون الشرف التقليدي.

وكان معظم سجناء السجن يمضون أوقاتهم بصنع محافظ النقود وحقائب السيدات من اللؤلؤ والزجاج متعدد الألوان. وكان عدد كبير من السجناء يعيشون هكذا من تجارة اللآلىء

والإبر والخيط أو من ثمرة أعمالهم. وتخصص بعض رفاقنا في هذا الفرع من الحرفة محاولين تحقيق "ذكريات السجن" لأجل السجناء قليلي المواهب في الأعمال اليدوية، ومضت الأشهر الخمسة من إعتقالنا دون مشقة. فلم نكن نعرف هموم السخرة ولا المحن المخزية الأخرى في سجن المزة ولا التعذيب.

وبينما كانت إقامتنا تقترب من نهايتها، أحيل العقيد (برازي) البالغ من العمر أربعين عاماً، الى التقاعد كبقية الضباط الكورد الآخرين، بالرغم من إرتباطه بالنظام وخضوعه لصنائع ناصر ومواهبه الكبيرة كمدير ومربي. وكان معاونه مساعداً بسيطاً وجد نفسه مكلفاً بإدارة إصلاحية (سجن الإصلاح) حيث كان أكثر من ثلاثة آلاف سجين يعيشون سوية. وهو الذي صدّق على أمر إطلاق سراحنا في ٨ آب ١٩٦١.

ذات صباح بهي، وجدت نفسي في مكان ذي هواء نقي والساقان مرتخيتان والقلب يخفق. مشيت بفرح في شوارع دمشق، ومع ذلك كنت أحس بأنني مُراقَب وملاحَظ ومطارَد دوماً كما وجدت نفسي فجأة بين الشعب الذي كان ينصرف الى أعماله اليومية وسط باعة المرطبات أو عصير الفواكه الذين كانوا يصيحون بأعلى أصواتهم وشعرت أن جسمي قد إعترته قشعريرة النشوة. كيف إستطعت قضاء سنة من حياتي محبوساً خلف الجدران الأسمنتية، في حين أن دمشق كانت تضج حيوية ونشاطاً؟ لقد طرت فرحاً وسروراً لأنني كنت خارج أسوار سجن المزة، ولكنني أشعر أحياناً بأنني لست طليقاً تماماً. وحاولت شيئاً فشيئاً أن أعتاد على الحرية والحياة الطبيعية. وكانت خيبة أملي الأولى هي مستودعي لإستيراد وتصدير المواد الصيدلانية الذي كان قد نُهب خلال فترة إعتقالي، مما أدى الى عجز في ميزانيتي لأكثر من (٥٠) ألف فرنك سويسري. وكان عليّ منذ الآن أن أباشر بالعمل بيدي وإنطلقت من نقطة الصفر.

6

سورية

- التعود ثانية على الحرية
- إنهيار وحدة مصر وسورية
- تجربة المرشح المنتدب في الپرلمان السوري
- العودة الى السجن ثانية
- إنقلاب ووصول حزب البعث الى السلطة
- حياة سرية لعدة أشهر لدى أسر كوردية في دمشق

إن إختلال النظام الإقتصادي الناتج عن وضع (ناصر) يده على سورية (ولاسيما سياسة تأميم المصارف والمشاريع الكبرى والأراضي)، لم يكن ليسهل لي الأمور. فقد كان سخط السوريين يزداد يوماً بعد يوم على إستعمار بلادهم من قبل مصر، وكانوا يظهرون إستياءهم علناً وهم يبحثون عن طريق لنجاتهم. فهل سأجد أخيراً راحة البال في هذا الوضع الفوضوي؟

كنت أتمنى ذلك بصدق حتى ذلك اليوم الذي كشفت فيه لعبة رجال المباحث. كان هؤلاء المباحث، وتحت غطاء التجارة، قد إستأجروا مكتباً مقابل مكتبي ويمضون أوقاتهم في التجسس عليّ وبحجة إستعمال الهاتف أحياناً، كانوا يدخلون مكتبي ليتحققوا من هوية زواري. وبالرغم من هذه المراقبة التي كانت تلازمني كقميص المجانين، إستطعت أن أحضر عدة إجتماعات مدنية وعسكرية عُقدت لتخليص سورية من الدكتاتورية الناصرية. وكان الإستياء شاملاً حتى إن عبدالحميد سراج نفسه طرح أسئلة على نفسه حول إخلاصه لناصر. وكان المتآمرون يحسبون أنهم سيقودونه الى زعامة الثورة. ولكنه تباطأ في التصرف. في غضون ذلك، سارع (ناصر) بإرسال القائد العام لجيش الجمهورية العربية المتحدة الى سورية، وشرع المشير (عامر)، بعد أن حل محل سراج الذي وُضع تحت الإقامة الجبرية، في نقل وتسريح الضباط (قليلي الثقة)، لكنه لم يستطع أن ينجز دوره. ففي فجر الثامن والعشرين من أيلول عام ١٩٦١، قامت الوحدات العسكرية السورية بقيادة العقيد (نحلاوي) رئيس أركان الحرب والعقيد (حيدر كزبري) مسؤول حرس الحدود (الهجّانة) بمباغتته وهو في قصره في (أبو رمانة) بدمشق ونفيه الى مصر فوراً.

وفي الغداة أُلغيت الوحدة السورية- المصرية. ورأينا حينئذ عشرات الآلاف من الضباط والجنود المصريين المنتشرين في كل أنحاء سورية وبشكل رئيسي قرب الحدود الإسرائيلية، قد إستسلموا لحفنة من الضباط والجنود السوريين. مقابل هذا الوضع لم يتجرأ (ناصر) على التدخل عسكرياً. فإستخدم الإذاعة لمساعدة رجاله وتوجيههم عن بعد، ليحشد جماهير سورية والعراق وللمحافظة على عدم الإستقرار. أثناء هذا الوقت، إتخذ أسياد سورية الجدد إجراءات القهر ضد عملاء (ناصر) وأعوانه. فوجد (مأمون كزبري) الأستاذ السابق في جامعة دمشق، نفسه مكلفاً بتشكيل حكومة مؤلفة بشكل رئيسي من المدنيين، وأعلن بعد فترة، إجراء إنتخابات حرة في البلاد في ٥ كانون الأول. ولقد شجعني كورد الجزيرة على الفور لترشيح نفسي للنيابة، وكانوا قد تأثروا جداً لإعتقالنا والأعمال الوحشية المتنوعة التي ذاقوا مرارتها أيضاً على عهد ناصر. وكانوا يتصورون أن الإنتخابات الموعودة ستكون حرة تماماً.

وفي دمشق كانت الحكومة تتصور رجلاً ذا ثقافة عالية ينحدر بالتأكيد من الطبقة البورجوازية الحرة لكي يمتّع سورية بالحريات الديمقراطية. ومع ذلك، كانت السلطة الحقيقية لازالت تحت يد الجيش. وكان الضباط الشباب قوميين ومتعصبين (شوفينيين)، قليلي الثقافة ويشتهرون بمناهضتهم للكورد. وبما أنني تنبأت حدود حرية هذه الإنتخابات، فقد رفضت إقتراحات الحزب الديمقراطي الكوردي الذي كان لايزال سرياً لكن ذلك لم يمنع أعضاء الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية من إرسال البرقيات والهواتف لي تطالبني بالعودة الى قامشلي. وبما أنني كنت متردداً فقد أثروا في أخي الذي دعاني للإمتثال لإرادة شعب. وفي منتصف تشرين الثاني، توجهت على متن طائرة الى قامشلي. وفي المطار إستقبلت إستقبالاً حاراً. ومن أجل هؤلاء الناس الذين يهانون يومياً، كنت بمثابة شخصية ذات إمكانات خارقة وبإمكانه إيجاد دواء سحري لجميع آلامهم.

وفي منزل أخي ألح الأصدقاء والرفاق عليّ بترشيح نفسي وإختيار شركائي في الإنتخابات دون إضاعة أية دقيقة، ولم يكن ذلك سهلاً. وعلى أساس فرز الأصوات غير الكامل والمزور، الذي أصبح عادة تحت الإنتداب الفرنسي، فقد حدد لقسمنا أربعة نواب (حضري كوردي معرب، سرياني أرثوذوكسي، كوردي وعربي من الريف). كان السوريون قد أوصوا أيضاً السلطات السورية عادة قبول توكيل زعيم قبيلة (شمّر) العربية دون إنتخاب، هذه القبيلة التي كان عدد أفرادها قليلاً جداً في سورية، وكان معظمهم يسكنون العراق في الجهة الأخرى من الحدود. لقد كانت هذه الطريقة لتنظيم الأمور ظلماً واضحاً. فحسب أرقام السجل المدني في قامشلي لم ينتخب سوى أربعة آلاف عربي وخمسة آلاف من غير المسلمين (مسيحيين من مختلف الطوائف وخاصة السريان الأرثوذوكس وأيضاً اليهود) من أصل (٥٠) ألف مقترع كان أغلبهم من الكورد. بالإضافة الى الكورد المسجلين في السجل المدني، هناك أكثر من مائة ألف لم يسجلوا وأُهملت طلبات تجنسهم منذ سنوات في المستودعات المغبرة في سراي

دمشق القديم. ورغم أن الكورد غير سوريين (أي أجانب) فإنهم مع ذلك يؤدون الخدمة الإلزامية (على الحدود الإسرائيلية)، ووثيقة الهوية التي كان الجيش يمنحهم إياها، لم تكن تمنحهم الحق سوى في التنقل داخل سورية وكانت أبواب الوظائف العامة موصدة في وجوههم بالإضافة الى أبواب المدارس الحكومية وبالإضافة الى هؤلاء (الكورد غير السوريين) هناك عشرات الآلاف من المسجلين فعلاً في السجل المدني، ولم تدون أسماؤهم على اللوائح الإنتخابية، بينما كورد آخرون وعلى الرغم من أنهم مسجلون بطريقة نظامية وجدوا أنفسهم ضمن المحرومين من الهوية الشخصية ومن الإقتراع.

وفي ٢٠ تشرين الثاني عام ١٩٦١، رشحت نفسي رسمياً للإنتخابات، وفي اليوم نفسه تحدثت مطولاً مع وكيل والي المدينة. فقال لي متضايقاً:

– سأعطي التعليمات اللازمة للموظفين المسؤولين لكي تُرفع المظالم التي تلحق بالكورد هنا، ضمن حدود الإمكان، ولكن نظراً لضيق الوقت الذي يفصلنا عن الإنتخابات ، سيقوم شبابنا بتسهيل عمل موظفيكم إذا رغبتم ذلك.

وفي الغداة، كان المئات من الفلاحين الكورد يحتشدون داخل السراي، كان بعضهم يعطي بطاقته الشخصية للشباب المتطوعين من أجلي وبعضهم الآخر يطلب منهم تسجيل أسمائهم وعناوينهم، وأسرع موظفو السجل المدني الملاحَقين من كل الجهات بتكديس سجلات كبيرة على مكاتبهم حيث كانوا يبحثون فيها عن الأسماء المؤهلة قبل تسجيلها على اللوائح. وقبل الإنتخابات بعدة أيام، كان أكثر من ألف شخص يحملون بطاقاتهم الشخصية، قد سُجلوا بإنتظام على اللوائح الإنتخابية. حين تأكدت إدارة الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، أن معظم المقترعين كانوا من الكورد وأن الأغلبية من بينهم سيقترعون للائحتي أرادت أن تنهي لعبة الإنتخابات الموروثة عن الدولة المنتدبة، وحرصت على أن تحتوي لائحتي على هؤلاء: (أنا بإعتباري حضرياً، وكوردیان من الريف، وسرياني من قامشلي) كان أحد الكورديين عضواً في الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، أما الآخر فكان النائب السابق المتعاطف. أما بالنسبة للسرياني الذي تربى بين الكورد، فقد كان يتحدث اللغة الكوردية ويشعر بأنه كوردي. إن هذا كان حدثاً مفاجئاً. وما أن أخبر ضابط المعلومات العسكرية بإعداد لائحتي، حتى أزال الحياد الذي كان قد لاحظه حتى ذلك الحين وثار ضدي وضد أنصاري في المقاطعات التابعة لقامشلي، ووُضع دعاتي تحت الإقامة الجبرية والمراقبة وجاء مبعوثو الضابط لينصحوني ودياً بالتخلي عن لائحتي وتشكيل قائمة أخرى تضم مرشحين بموافقة الجيش. ونظراً لرفضي ذلك، فقد تحالفوا حينئذ في قائمة واحدة يرأسها (طلعت عبدالقادر) وهو أحد أبناء أسرة كوردية عريقة من قامشلي ولكنها تعربَت تماماً. وكان رائداً سابقاً في طيران الجيش السوري. كان قد إختار زملاء له في الترشيح وهما شيخان من قبيلة (طي) العربية، وكانا أميين تماماً على الرغم من أن القانون إشترط أن يكون مرشحو النيابة مثقفين بالضرورة. أما

بالنسبة للسرياني في قائمة (عبدالقادر) فقد كان أحد إخوة (أصغر نجار) من أغنى عائلة في سورية. ومقابل فريق يسنده الجيش ويقدم له الوسائل المالية الضخمة، فإن رهاننا كان يصعب شيئاً فشيئاً. فقد كنت وزملائي في الطريق ننتظر أصواتاً من الشعب بالإضافة الى وسائل تمويل عملياتنا الإنتخابية. ففي كل مدينة من مدن المقاطعة، كنا قد فتحنا مكتباً كان أنصارنا يأتون إليه ليستريحوا ويناقشوا أو يشربوا الشاي. كان علينا أن ننشر على نفقتنا القائمة الإنتخابية وبعض المنشورات ونجهز سيارات لتنقلاتنا ونقل أنصارنا الى مراكز الإقتراع لأنه في الريف كانت مكاتب الإقتراع نادرة ومتباعدة جداً على الأغلب ولم نستطع أنا ورفاقي أن نغطي النفقات. ولحسن الحظ، فقد أعلن سكان الريف الفلاحون إستعدادهم للتضحية بأموالهم في سبيلنا. هؤلاء الفلاحون الذين كانوا يلاقون كل المصاعب والمشقات للحصول على لقمة عيشهم، إستطاعوا أن يجمعوا عشرات الآلاف من الليرات السورية.

أما الفريق الخصم الذي كان يقترح (٢٥) ليرة سورية على كل مقترع، فقد كان مذهولاً تماماً لهذه النتيجة. أما بالنسبة للعرب المناهضين للكورد وخاصة الضباط، فقد حكموا على تصرف الشعب الكوردي بأنه "خطير جداً" وأقسموا وهم يكزون عليّ أسنانهم، بتحطيم حماسة الشعور القومي الكوردي. وخلال هذا الوقت كانت الحملة الإنتخابية في أوج نشاطها، وكان مرشحو قائمتي يتنقلون عبر المنطقة، من قرية لأخرى، ويقيمون إتصالات جديدة هنا، ويلقون خطابات جديدة هناك وهم يشجعون ويحرسون قوائمنا إما ضد تمرد خصومنا أو ضد تهديدات أو تدخل السلطات. أما من جهتي، وبالرغم من نصائح رفاقي والدعوات التي كانت تصل اليّ. فقد فضلت البقاء في منزلي بدلاً من التخبط. ومع ذلك وقبل الإنتخابات بثلاثة أيام، دعتني مدينتا عامودا والدرباسية، الأولى على بعد (٣٠) كيلومتراً عن قامشلي والثانية على بعد (٦٠) كيلومتراً، بإصرار كبير مما أدى بي الى تلبية دعوتهما. وبعد ظهر الثامن من كانون الأول تقدم أحد الأصدقاء ليقودني خلال الجولة هناك. وفي مدخل عامودا، (وهي مركز قديم للحركة القومية الكوردية) إستقبلني عدة مئات من الشباب المتعاطفين والمرحين. وبعد أن أطلقوا عبارات الترحيب وهتافات الـ"تعيش" حجزوا سيارتنا ورقصوا على أنغام موسيقى كوردية جميلة. ثم حاصروا سيارتنا فجأة وبسرعة البرق أمسكوها ووضعوها على أكتافهم وكان الجميع يغنون أغنيات قومية كوردية، وساروا بالسيارة على أكتافهم مسافة مائة متر. وبعد ذلك حملني بعض الأنصار على أكتافهم حتى مقر الحزب الذي كان آلاف الأشخاص قد هبّوا إليه. وبعد تقديم القهوة، توسلوا اليّ بتوجيه بعض الكلمات الى الشعب ومن أعلى المنصة شكرت ضيوفي على مساعدتهم وإستقبالهم الحار، ولعنت نظام (ناصر) ثم شكرت الجيش لأنه ساعد البلاد في الوصول الى الحرية والديمقراطية: "إنني حينما أتحدث إليكم هنا بكامل الحرية فهذا يعني ويشير الى إنفتاح عصر إزدهار وسعادة لسورية ولجميع سكانها سواء كانوا عرباً أم كورداً". وبما أن الوقت إقترب من المساء فقد كان عليّ أن أختصر الكلام

للذهاب الى الدرباسية قبل العودة الى قامشلي. ولما عدت الى منزلي حوالي العاشرة مساءً كان بعض الأصدقاء في إنتظاري يترقبون الأخبار. وبينما كنت أحدثهم عن مشاعري وإنطباعاتي إذا بالباب يُقرع. كان هناك شرطيان يريدان التحدث إليّ وقالا لي بلهجة لطيفة:

– تفضل الى مكتب مدير الشرطة فهو يريد التحدث إليك. فأخذت طريق السراي وأنا أطرح على نفسي ألف سؤال وسؤال دون أن أجد تفسيراً معقولاً لهذا الإستدعاء الليلي. كان أمام الباب شرطي أدخلني الى مكتب المدير يرافقه عقيد ورائد باللباس العسكري، فسألني بلطف:

– لقد ذهبت بعد ظهر اليوم الى عامودا وألقيت فيها خطاباً أليس كذلك؟ فقلت مندهشاً:

– نعم وما الضرر في ذلك؟

– آه، ليس هناك أي ضرر، ولكن أنظر لم يبق للإنتخابات سوى يومين، وحسب القانون يجب أن تتوقف الحملة الإنتخابية قبل ثلاثة أيام من تاريخ إجرائها، ويؤلمنا أن نتأكد بأنك لم تحسب حساب هذا الشرط.

– لا أعتقد أنني خالفت القانون ياسيدي المدير. لأن الحظر لايسري مفعوله إلا إعتباراً من يوم غد، ومن جهة أخرى، أنا لم أذهب الى عامودا لحث الناس على الإقتراع من أجلي، فالمدينة نفسها هي التي دعتني، وألقيت الخطاب كي أشكر الأهالي على إستقبالهم لي وأشكر الجيش لأنه أنقذنا من إحتلال المصريين ورجال المباحث. بهذه الكلمات رمقني العسكريون الثلاثة لحظة ثم قال لي المدير:

– يادكتور إننا نعلم أن الشعب يحبك وإنك لست بحاجة الى دعاية لتُنتخب، ولكن بما أن شخصيتك تثير مشاعر أهالي المنطقة. فمن الأولى ألا تخرج من بيتك قبل نهاية الإنتخابات، هل يمكنك أن تعدني بذلك؟ فقلت له دون تردد:

– نعم، بالتأكيد.

فقال وهو ينهض ويصافحني:

– حسناً، أرجو المعذرة لأنني أزعجتك. نتمنى لك ليلة سعيدة. وكذلك فعل العسكريان الآخران ورافقوني الى الباب. وكان أصدقائي في البيت جالسين حول أخي يبدو عليهم القلق. فقلت لهم مطمئناً:

– ما من خطر، نصحني المدير بعدم مغادرة المنزل حتى نهاية الإنتخابات، لكيلا أثير مشاعر الشعب كثيراً ولتجنب المظاهرات. فقال أخي:

– إن المدير رجل شريف ورجل قانون ذو مكانة سامية وديمقراطي واثق من نفسه. ولكن في بلد يكون مصير شعب بيد ضباط شباب جهلاء متزمتين بالقومية البعثية أو الناصرية،

معتبرين أنفسهم جميعاً مثل نابليون في القوة والبأس تلتهمهم الغطرسة والمطامح، فإن رجالاً يتصفون بالرزانة، مثل مديرنا ، قلما يمكن أن يُبدوا آرا ءهم ويجب أن يكونوا على حذر شديد في مهامهم.

– لكي يعطيك مثل هذه النصائح، كان عليه أن يشعر بأن حريته في خطر، إخضع لتوصياته طوعاً وتجنب إتاحة الفرصة للتحديات. وكان زوارنا على وشك الرحيل حينما قُرع الباب مرة أخرى، وإذا بي أجد نفسي أمام شرطيين عابسي الوجه، فأمرني أحدهما بعنف قائلاً:

– هيا أسرع لمقابلة المدير.

– ولكنني ذهبت لرؤيته قبل ساعة أو أقل.

–عليك الذهاب الى مكتبه دون تأخير!

لقد حدث تغيير كبير في السلطات، وأوشك مرة أخرى أن أجد نفسي خلف القضبان الحديدية. كان المدير ينتظرني في الطابق الأرضي في مدخل السراي تماماً. فهرع نحوي وبدأ يتذرع بحجج قائلاً:

– لقد عملت كل ما بوسعي لأجد مستمسكاً عليك حول جولتك في عامودا والدرباسية. في هذا البلد كلنا لسوء الحظ، نُحكم من قبل ضباط أطفال أرادوا أن ألجأ الى مخالفة القانون. فقلت له بهدوء:

– إنك تنوي إيقافي حسبما أرى. فأجابني وهو يفرك عينيه:

– صدقني يا نورالدين بيگ، لست هنا من أجل شيء ما. إنهم ضباط أو هؤلاء الأولاد، كما أسميهم، الذين تحدثوا هاتفياً من دمشق وطلبوا إعتقالك.

– لا تهتم بي، فكر فقط بنتائج إعتقالي. ألا تغامرون بتفجير منطقة جريحة نسبياً وحساسة لأقصى درجة؟

– أعلم، أعلم... لقد أخبرت دمشق لفترة طويلة عن خصوصيات الجزيرة وتوسلت المسؤولين بأخذها بعين الإعتبار، ولكنني مع الأسف لم أستطع إقناعهم بذلك، أو بالأحرى لم أستطع أن أفعل شيئاً لأن وزير الداخلية أقام وزناً لتقارير مرؤوسيه المباشرين أكثر من إدارات الضباط الصغار المتعلقة بالمعلومات العسكرية. ومع ذلك وقبل أن أتخذ قراراً بهذه الخطورة، فإنني أتصل هاتفياً بدمشق وبعد عشر دقائق جاء معبراً عن سخطه:

– لاشيء أفعله، كل شيء بيد الجيش الذي لايستحق قواده أن يحكموا البلاد ، ولايريدون تركك مهما كان الثمن، إنني آسف منهم فعلاً. وقال وهو يجلس:

– فلننتظر وصول قائد الشرطة.

وبعد قليل، وصل القائد حيث كان في مهمة تفتيشية عبر المدن ولاحظ أن عدداً كبيراً من المداخل مازالت منارة بالرغم من الساعة المتأخرة من الليل، لقد أقلقه هذا الإثبات. فجلس القائد بقربي وبدأ يترصد الأصوات القادمة من الخارج خشية أن يأتي أنصاري لمهاجمة السراي وإطلاق سراحي. وكان يرتعد كنابض كلما سمع أي صوت غريب ويجيل عليّ نظرة تساؤلات.

لقد كانت الحدود التركية تبعد عنا خمسة كيلومترات فقط وكان النشاط فيها مكثفاً دوماً. حيث كان هناك خط سياسي وهمي يفصل بشكل إصطناعي بلداً عن آخر وكذلك الناس عن بعضهم البعض والأطفال عن الشعب. فهناك قرى كاملة ظلت منازلها في تركيا وأصبحت أراضيها سورية في يوم واحد. وبات أحد الأخوة تركياً والآخر سورياً، ولم يكونا يستطيعان أن يريا بعضهما إلا سراً. كانت كوردستان تركيا غنية بالمواشي والفواكه والخشب في حين أن كوردستان سورية كانت غنية بالحبوب والصناعات النسيجية والبن والشاي وبعض ضرورات الحياة. وحينما حُطمت الوحدة الإقتصادية، كانت المبادلات التجارية تتم خفية عن طريق التهريب. ولكي يكون المرء مهرباً في هذه المنطقة، كان عليه أن يكون شجاعاً للغاية، ماكراً ومسلحاً جيداً ويعرف الأماكن ويملك صفات خيرة الرماة. فإن كان الدركي التركي تسهل رشوته نسبياً، فقد كان يجب معرفة كيفية شرائه وتنسيق مروره عبر الحدود مع ميقات حراسة الدركي الفاسد. وفي مواجهة دورية مجهولة لم يكن للمهرب سوى خيارين: إما الفرار أو القتال. ولم يكن هناك أي أمر غريب حينما كانت ليالي هذه المنطقة تتمزق دوماً بإنفجارات ومفرقعات.

وفي ذلك المساء، كان قائد الشرطة في قامشلي يرتعد لكل طلقة نارية تشق الهواء قرب الحدود. وكان يسأل المدير وهو يمد أذنيه وينظر من النافذة:

- ماهذا ؟

فحاول المدير ألاّ يضحك وطمأنه بصوت هادىء:

- إطمئن، هذا بالتأكيد ليس من عندنا.

وبما أن القائد لم يستطع السيطرة على أعصابه، فقد طلب المدير منه أن يبتعد وبقيت وحيداً بصحبته. ونظر اليّ بهيئة حزينة وهو متضايق بنقلي الى السجن، فقلت لكي أشجعه:

- أفضل أن تأخذني بيدك وليس بيد غيرك، هيا سلمني الى السجان وإذهب الى النوم. فنهض المدير بلامبالاة وتوسل اليّ كي أتبعه، وكانت السجن على بعد (٥) أمتار فقط من هناك. وسلمني الى حارس ليلي بعد أن همس بضع كلمات في أذنه. فأدخلني الى حجرة فيها سجين واحد فقط وزودني بغطائين صوفيين ثم أغلق الباب الحديدي الثقيل. وكان جاري السجين مثقفاً من قبيلة طي العربية. وكانت دراسته في الكتاتيب لبضع سنوات قد فتحت عينيه على سلب الزعماء الإقطاعيين لأفراد الشعب. وكان مرشحاً للنيابة من القائمة المدعومة

من ضابط المكتب الثاني. أعضاء قبيلته ألقوه في السجن. فوجدته متضايقاً أيضاً.

كانت القبائل العربية في ذلك العصر تعادي الثقافة عداءً شديداً وكانت تكره فكرة التعليم الديني، فقد كان ملاليهم (رجال الدين) وأئمتهم بصورة عامة كورداً. أما صاحبي في السجن فقد كان على خلاف ذلك. فقد درس العلوم الفقهية في مدرسة (كتّاب) قرية (خزنه)، كان قد أسسها شيخ كوردي وهو الشيخ (أحمد الخزنوي)، وكان أحد كبار الشيوخ النقشبندية، وكان قد ثار ضد دكتاتورية الزعماء الإقطاعيين وحلم بعالم خال من الطفيليين ومن جميع أنواع المتحايلين.

وبما أنني لم أكن أستطيع النوم، فقد أصغيت له ساعات طويلة وهو يروي لي حيل ودسائس ومؤامرات الإقطاعيين العرب مع السلطات المحلية والبلاطات الملكية للدول العربية لكي يستغلوا قضاياها ويغتنوا ويعيشوا عيشة السلاطين. وفي الغداة وبينما كنت أنتظر إطلاق سراحي، إنضم اليّ أحد زملائي في الإنتخابات وكان قد إتُهم بمخالفة تعليمات القوانين الإنتخابية. وعند الظهر جاء أخي لزيارتي وهو قلق وغاضب وكان ضابط المعلومات العسكرية قد هدد بتسليمه الى الأتراك إن لم أسحب ترشيحي من القائمة. وبعيد الظهر تلقيت زيارة أخرى. حيث جاء ضابط معلومات الجيش بصحبة زميلين له جاؤوا لإرغامي على التخلي عن ترشيحي وصاحوا بي:

إذا كنت تعاند فإننا سنحولك الى سجن المزة. فقلت ضاحكاً:

– آه، لم أعد أخافه منذ أن عرفته، لقد إعتدت عليه.

وفي ١١ كانون الأول، أي يوم الإنتخابات وكان نهاراً جميلاً مشمساً، سمح لنا بالخروج الى الباحة. وحوالي الساعة الحادية عشرة، صعد شرطي على أحد السطوح المطلة على الباحة وهو عائد من مراقبة الإقتراع، وصاح بأعلى صوته قبل أن يأتي لتهنئتي:

– لم تمر سوى قائمة زازا. ففي كل مكان زازا، زازا.

وعند الظهر تلقيت تهاني بعض رجال الشرطة الآخرين. ولكن في الساعة الثانية ظهراً، حمل إلينا شرطي أنباءً مخيفة وقال:

– حينما رأت السلطات أن قائمتك كانت في المقدمة، أمرت (حرس الحدود) بأن يعيثوا فساداً ضد الناخبين الذين كانوا يعلمون بأنهم من جانبك. فضُرب ناخب كبير في السن، ومع ذلك بالرغم من ضربات العصا والرعب، فقد إستمر الناس في وضع قائمتك في صندوق الإقتراع. فبدأت السلطات حينئذ بإعتقال ممثليك في مكاتب الإقتراع. وحُشد هؤلاء المثلون في سجن عامودا. أما بالنسبة للأنصار الذين حاولوا الإحتجاج ضد هذه الحالة، فقد ضُربوا بقوة ووحشية. فقلّ عدد المنتخبين وملئت صناديق الإقتراع التي لم تراقب من قبل ممثليك، بنشرات القائمة الحكومية. إنني لاأقول ذلك لأحزنك بل لأطلاعك على ما يجري وما سيكون.

المرشح الوحيد في قائمتك والذي بقي حراً حاول أن يرسل الى دمشق برقيات إحتجاج. وإحتُجز الجميع من قبل ضابط المعلومات العسكرية، ومن الصدمة أصبح رجال الشرطة الآخرون صامتين وخيم على السجن صمت مطبق. وفي وقت متأخر من الليل عُرفت نتيجة الإنتخابات:

– لقد إنتصر المرشحون المكلفون من قبل الجيش بشموخ وبعد ليلتين، مثلت وشريكي في الإنتخابات أمام القاضي الذي طرح، خلال أكثر من ساعتين، أسئلة غير معقولة وهو يتهمني بجرائم عجيبة فقد ألح عليّ قائلاً:

– لماذا شكّلت قائمتك بهذه الطريقة؟

– لأجعلها نموذجية قدر الإمكان.

– لماذا لم تكن تحتوي سوى على الكورد ؟

– لأن معظم سكان المقاطعة من الكورد.

– لماذا ألقيت خطابات باللغة الكوردية في عامودا والدرباسية؟

لم لاأتحدث باللغة الكوردية وأنا أتوجه بحديثي الى الكورد. وهل هناك في سورية قوانين أو قرارات رسمية تحضر إستعمال اللغة الكوردية كما في تركيا ؟ فأجاب القاضي بإرتباك:

– لا ، لاأعتقد ذلك. وأضاف مستدركاً:

– أنظر، إن العربي الذي يهتم بمستقبل الأمة العربية الكبرى، يقلق من تذبذب القوميين الكورد. إن تسلسل الويلات التي عانينا ومانزال نعانيها من قبل الصهيونية، جعلنا نأخذ حذرنا وحيطتنا تجاه كل شعب يسكن العالم العربي. إن ثورة كورد العراق بقيادة (مصطفى البارزاني) الذي سار بالثورة حتى طلبت الحكم الذاتي الكامل في شمال العراق كله، تحملنا على الإعتقاد بأننا أمام ولادة دولة إسرائيل ثانية وأن نشك في أن لكم علاقات مباشرة مع (البارزاني)، وذلك لكي تلحقوا شمال سورية بالدولة الإصطناعية التي تعملون على تأسيسها بفصل أجزاء صغيرة من الدول العربية. إن خطابك في عامودا له مدلول بهذا الخصوص فقد قلت فيه حرفياً: "اليوم، تغلبت الأمة الكوردية على الأمة العربية". فسألته وأنا أتمالك نفسي لئلا أنفجر غضباً:

– أتمزح أم إنك تتكلم بجدية؟

– إنني لم أعتد على الهزل. فتقرير مدير المنطقة صريح بشأن هذه النقطة.

– ولكن كيف يمكن لموظف في الدولة ومدير مسؤول عن منطقة، أن يؤلف تقارير من إخراجه؟ كيف يمكن للعدالة أن تستند عليهم لحرمان المواطنين من حريتهم وجعلهم يتفسخون في السجون؟ إن آلاف الكورد الذي أصغوا الى خطابي في عامودا لم يسمعوا مثل هذا

الهذيان. فمن أين أخرجها السيد مدير المنطقة الذي لايفهم أية كلمة كوردية؟ إن التهم التي تلقيها عليّ وعلى الكورد بصورة عامة ليس لها أي أساس من الصحة أبداً فهي ليست سوى أعذار لتنفيذ مخطط إبادة جسدية أو تعريب كورد سورية. وإلا فلماذا يكون الكورد في عيون القوميين الشوفينيين العرب أشبه بالصهاينة؟ هل جاؤوا ليستولوا على أرض تخص العرب؟ لا، إن العرب يطمحون الى تهجيرهم من أراضيهم، وأنت تعلم ذلك ويبذلون ما في وسعهم لإفناء ثقافتهم وكيانهم. أتسمح فقط بفتح مدارس باللغة الكوردية؟ لا، لا شيء من ذلك. إن الدولة الصهيونية قد منحت حريات واسعة للعرب الباقين على أرضها، ولاأخفي عنك أنه حينما تخلصت سورية من الدكتاتورية الناصرية، تمنينا ديمقراطية حقيقية في عهد جديد.

كان الإستجواب سيطول لساعات، ولكن القاضي أعلن فجأة أن الوقت متأخر. وإستجوب شريكي في الإنتخابات بإختصار قبل أن ننقل الى السجن حيث بقينا فيه يومين إضافيين، ثم نُقلت إضبارتنا الى النيابة العامة وكان علينا الإنتظار يوماً أو يومين للمثول أمام المحكمة بقامشلي. فإن بقيت في هذه المدينة فإنني سأجازف بحياتي لأني سأقع في براثن المباحث. وأسرعت بصحبة بعض الأصدقاء بالسفر من دمشق الى حلب. وبما أنني لم أكن أقر تماماً بعجزي، فقد طلبت فتح تحقيق لإثبات شرعية الإنتخابات، ولم يعجب طلبي السوريين خاصة الذين إنتقموا على طريقتهم. ففي عامودا أوقفوا مائتي طالب تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة، متهمين إياهم أنهم كتبوا على الجدران مايلي:

"أنتم ياعرب غادروا أرضنا كوردستان"

"يعيش بارزاني وممثله في سورية نورالدين زازا"

وقام رجال الشرطة بنزع ثياب الأطفال وهددوهم بإغتصابهم:

-هيا قولوا أن زازا تلقى أسلحة من البارزاني وأنه يريد القيام بإنقلاب ضد سورية.

ونتيجة الخوف نفذ معظم الأولاد أوامرهم ولكن الجميع كانوا يعلمون بأنني لم أتلق أسلحة من البارزاني وأني لاأنوي القيام بإنقلاب أبداً. وإجتمع البرلمان في نهاية كانون الأول، أما بالنسبة للجنة التحقيق، فلم تنشأ إلا في منتصف كانون الثاني، وقُبل طلبي رسمياً وتم تشكيل لجنة تحقيق فرعية. هذه اللجنة لم يكن لديها الوقت لمباشرة عملها بسبب وقوع إنقلاب عسكري. فأُوقف رئيس الجمهورية (ناظم قدسي) ورئيس مجلس الوزراء (معروف دواليبي) وحُل المجلس النيابي وأُلغي الدستور فوراً. إن هذا التدخل من العسكريين بالإضافة الى تدخل العملاء الناصريين في شؤون البلاد، أدى الى سلسلة من الإنقلابات العسكرية.

فإنقلاب ٨ اذار قام به العقيد (حريري) وجاء بحزب البعث الى السلطة، هذا الحزب الذي كان أنصاره قلة ولم يكن يستطيع البقاء في السلطة إلا باللجوء الى الإضطهاد العسكري والبوليسي. وسارع هذا الإجراء السياسي برسم قوائم سوداء، وتسجيل أسماء المواطنين

المعروفين بإنتمائهم الى الديمقراطية وشعبيتهم لدى الجماهير. والذين سجلت أسماؤهم على القوائم، وجدوا أنفسهم محرومين من الحقوق المدنية ولاقوا السجن والتعذيب. كما أن الأسماء التي كانت موجودة في تلك القوائم السوداء، أذيعت بالراديو عدة مرات يومياً لكي يرهبوا الضحايا ويثيروا مشاعر السكان.

في العشرين من آذار وأثناء فترات البث الإذاعي الصباحي سمعت إسمي مراراً، لقد كانت إشارة إنذار للنوايا السيئة التي كانت السلطات الجديدة تكنها ضدي. ولم تكن أوضاعي تسمح لي بمغادرة البلاد، فتابعت عملي في المكتب وتفرغت لإهتماماتي كما لو أن شيئاً لم يكن. وفي صبيحة ٨ نيسان، جاء رجال شرطة بالزي المدني مرسلين من قبل المباحث لإعتقالي، لكنني إستطعت أن أنسحب منهم بطريقة ما. فقلت لهم أن لي موعداً مع طبيب أسنان، وكنت خارج مكتبي بإنتظار المصعد الكهربائي حينما خرج منه رجلان، فقال صبي المصعد:

-إنه هنا. فقلت في نفسي "ما من شك أنهم رجال المباحث، ودون أن أرتعد أخذت المصعد وخرجت من البناية بسرعة قبل النزول الى الشارع بخطوات سريعة. كانت هناك سيارة جيب (VW) تنتظر في الجهة الأخرى من الشارع والسائق على المقود. ولحسن الحظ لم يكن رجال المباحث كسابقيهم في عهد ناصر، فلم يكونوا يعرفونني وكانت تنقصني الخبرة، وبدأت أغوص في الشارع الصاخب والغاضب. وكانت عيادة طبيب أسناني ليست بعيدة من هناك. وبينما كان الطبيب يعالجني، قالت الممرضة لي فجأة:

- ياإلهي، لقد وضعوا إسمك على القائمة السوداء، ولم يدعوا أي إنسان وعما قريب، لن يكون هناك إنسان صالح في هذا البلد.

لكن الطبيب الذي ينحدر من أسرة بورجوازية عريقة في دمشق، يشعر بإزدراء عميق تجاه العسكريين والدكتاتوريين، ولكن خضوعه لطبقته كان يفرض عليه الحذر بالإضافة الى الجبن. فقال للممرضة بلهجة جافة:

- إن العيادة الطبية ليست مكاناً لبحث مثل هذه الأمور.

لقد إستطعت أن أتخلص من براثن المباحث ولكن حتى متى؟ لم أكن بالطبع أستطيع العودة الى منزلي، ولما خرجت من العيادة الطبية، ذهبت الى منزل صديق مستخدم في منظمة الهلال الأحمر السوري، وقصصت له عن مجيء العملاء ورجوته بالمجيء الى مكاتبي ليفهم ما جرى فيها حقيقة. فجاء صديقي إليها فوراً وغادرها بعد ربع ساعة، وتأكد من زيارة رجل المباحث وحينما تأكدت الشكوك لديّ، كان يجب أن ألجأ الى أحد أثق به. وبعد تفكير طويل حكمت بأن المنزل الأكثر ملائمة، كان منزل المدرس المتقاعد ممدوح سليم. وهو أحد المناضلين القوميين الكورد القدماء، منذ زمن طويل هو في منأى عن أي نشاط سياسي. كان قد تزوج في سن

مبكرة وإحتفظ بالبيت الصغير الذي كان يسكنه منذ أكثر من أربعين عاماً في مرتفعات حي المهاجرين، حيث كان يحب أن يلجأ إليه وحيداً بين كتبه، أما بالنسبة للمنزل الذي كان يسكنه مع زوجته وحماته، فكان يقع في أسفل المدينة، في الجسر الأبيض، وقد كان ممدوح سليم يأتي إليها أقل مما كان في مكتبته الخاصة الشبيهة بالكوخ. لهذا قلت في نفسي بأن المباحث لن يخطر على بالهم البحث عني هنا....

كانت زوجة ممدوح سليم شركسية حيث كشفت لها عن الحوادث التي حدثت فجأة، وإستقبلتني بشكل عفوي قائلة:

- بغياب ممدوح بيگ، أستطيع القول بأننا نستقبلك بحفاوة ونضعك على الرأس والعين. وبعد أن هدأت نفسي، أمضيت وقتاً طويلاً في التحدث إليها والى أمها العجوز التي أمضت أجمل سنوات عمرها في بلاط آخر السلاطين العثمانيين. وكان يروق لها كثيراً الحديث عن العجائب التي كان السلاطين قد إدخروها في سراياهم، وكانت إحدى بناتها قد تزوجت، في عهد الإحتلال البريطاني، رجلاً فلسطينياً غنياً من حيفا، ولجأت الى دمشق بعد نكبة ١٩٤٨، وكانت تعيش مع أسرتها مقابل منزل إمرأة ممدوح سليم. وفي ذلك العصر كان زوجها يظهر ثقة عمياء بناصر ويعتقد أن "عملاق العالم العربي هذا" سيلقي ذات يوم اليهود في البحر.... وسألت زوجة ممدوح سليم ما إذا كانت تستطيع أن تناديه للتحدث معي، فقلت لها:

- إذا كنت متأكدة أنه سيحتفظ بالسر ولايمدح ناصر كثيراً فلم لا؟ فأجابت:

- بالنسبة للسر فأنا متأكدة منه، أما بالنسبة للشرط الثاني فيصعب عليّ أن أعطيك ضمانات. فالفلسطينيون بحاجة لـ(منقذ) ويعتقدون أن هذا المنقذ هو (ناصر) وبالتأكيد لن تدوم هذه القناعة إن لم يحقق ناصر حلمهم.

جسدياً، لم يكن هذا الفلسطيني ذو القامة الرشيقة والوجه المنير والعينين الزرقاوين يشبه العرب. ومع ذلك كانت ولادته، ولغته وثقافته ومصيره يجعله عربياً خالصاً. كان يكره آيديولوجية البعث والبعثيين وأقسم بحمايتي كما لو كنت إبنه وأراد أن يقنعني أن ناصر ضمّن في منهاجه تحرير الشعب الكوردي! لقد كان ذلك شيئاً جميلاً جداً. وصل ممدوح بيگ ظهراً، وما أن أطلعته زوجته على قصتي حتى طمأنني بأن منزلهم هو منزلي مهما بقيت فيه. لقد دامت إقامتي عنده عشرة أيام كنت أُعامل خلالها معاملة ضيف شرف حقيقي.

كان ممدوح بيگ يذهب أحياناً الى مكتبي ويأتي بأخبار منه. كان المباحث يلازمونه غالباً ويهددون مستخدَمي بإغلاق المؤسسة إن لم يتعاونوا معهم على القبض عليّ، لكنهم كانوا يقاومون وقلما إرتعبوا لهذا الإبتزاز.

كان ممدوح بيگ قد تجاوز الخامسة والسبعين وكان فخوراً بإيوائي. ومع ذلك كان واضحاً أنني لم أستطع البقاء طويلاً في منزله لكي لاأنغص عليه حياته العائلية. فمنذ اليوم الثالث

طلبت من صديقي القديم مساعدتي لإيجاد مخبأ أمين آخر. والمكان الأكثر أماناً الذي خطر على بالنا كان الحي الكوردي بدمشق، الذي كان يشتهر بكونه أرض المنفى وملجأ المنفيين والمضطَهدين. وجدنا فيه مجموعة من المعارف والأصدقاء الذين أبدوا إستعدادهم لحمايتي في دورهم. إن إخلاص وتضحية مضيّفي كانا الشرطين الأساسيين ولكنهما غير كافيين. فهل كان الوضع الخارجي والداخلي للمنزل وتكوين العائلة وعلاقاتها مع أقاربها وجيرانها، يضمن لنا أدنى أمان وكتمان. كان (أبو جنگيز) شرطياً سابقاً فُصل بسبب مشاعره الكوردية، تعهد بكشف عناوين الأسر التي ترحب بضيافتي، فسكنت في البداية في منزل (الصوفي)، وقد لقي هو وعائلته مشقة كبيرة لتحضير أطباق شهية لي ولكي يدخلوا السرور الى نفسي.

وبعد أن سُرح من وظيفته كبواب مدرسة، أُرغم على القيام بجميع الأعمال. ففي موسم الحج، كان يرشد الحجاج الكورد المسلمين الذين كانوا يأتون من تركيا الى مكة مروراً بدمشق، هذا العمل كان يُكسبه بعض المال. لقد رأيته عائداً وهو يفرش نقوده على الطاولة ويصيح بهيئة المنتصر:

– هذه فاكهة لك!

وكان الصوفي يعيش في حالة بؤس، وبما أنني كنت أجهز شيئاً من النقود وألح عليه بإستلامها فإنه كان يرفض ويقول:

– كيف ذلك؟ إنك في دارنا. بقيت في منزله ثلاثة أسابيع. ثم إستقبلني (أبو عادل) وبعده (عزت آغا) الذي جند كل أفراد عائلته لإستقبالي. لقد كان جميع الكورد الذين آووني وحموني ينحدرون من أوساط فقيرة جداً وتحاول أن تعيش عيشة زهيدة. كانوا يلزمون أنفسهم بخسائر كبيرة ليضمنوا أمني وسلامتي، ويقدمون لي أطباقاً متنوعة ومعدة بسخاء. وكلما كنت ألح على مشاركتي في المصاريف ووضع بعض النقود في جيوبهم، كانوا يمتنعون ويقسمون لي بما أنهم كورد فإن الضيافة عندهم أمر مقدس. فمنذ نعومة أظفارهم تعلموا إستقبال وخدمة وإحترام الضيوف.

كانت المنازل الثلاثة التي أقمت فيها عامرة بالأطفال، لم يتغافل أي منهم من الذين كانوا يذهبون الى المدرسة أو يلعبون مع رفاقهم في الخارج أن يلمّح أقل تلميح الى (الضيف السري) الذي كان أهله يؤونه. وبالمقابل فقد تفانوا جميعاً لأداء خدمة لي والغناء وقراءة القصائد باللغة الكوردية أو العربية.

وكانت زوجة (أبو عادل) معروفة بإرتباطها بالحيوانات ولاسيما القطط، وكان عندها عشرة قطط إستطاعت أن تعيش معها بإنسجام تام، بالإضافة الى بعض الدجاجات وثعلب وإبن آوى. وذات يوم جميل، جاء إبنه الصغير، الذي كان يبلغ التاسعة حينها، بهرة صغيرة ذات وبر ناعم ولون كستنائي ممزوج بالأصفر والأبيض كان قد وجدها في أحد شوارع دمشق،

فأخذتها بين ذراعي وداعبتها:

– لو لم أكن في هذا الوضع لطلبتها منك. فقالت (أم عدنان)[٧٥]:

– حسناً، إعتبرها لك وسمها ما شئت وسنحفظها لك حتى تستتب الأمور. بهذه الكلمات بدأت أبحث عن إسم كوردي جميل.

– في أي يوم نحن اليوم. فقال الصبي:

– اليوم، جمعة. فصحت قائلاً:

– أننا في ليلة الجمعة، فإن هذه القطة الصغيرة ستُدعى (5W?)، كما لو أنني قمت بإكتشاف غريب.

وهكذا سُميت (5W) وعُهدت إليّ لأعتني بها، وبعد بضعة أيام تعلقت بي كثيراً حتى إنها كانت تشاطرني مخدتي. ولكن بدافع الفضول، وبعد أسبوع أخذت (5W) أبعادها. فكان عليّ أن أناديها لفترة طويلة حتى تدنو مني. وفي المساء لم تكن تأتي الى غرفتي وإذا أخذتها بالقوة كانت تموء. وحينما ذُهلت بهذا التصرف، بحثت عن تفسير لدى (أم عدنان) التي إنفجرت حينئذ بضحكة إستهزاء:

– إن سبب ذلك بسيط جداً، فهروب (5W) منك هو لأنني وجدت لها أماً.

– وكيف ذلك؟

– لقد إستطعت أن أجعل إحدى قططي التي لها صغار تتبناها، فأرضعتها وأشبعتها وهي تشعر بأمان في صحبة أمها وإخوتها وأخواتها.

هذه المرأة القصيرة السمراء التي في الأربعينات من عمرها، كانت مفعمة بالبطولة والرأفة، هاتين الفضيلتين اللتين ورثتهما عن أجدادها. فخلال حكم الأتراك العثمانيين لسورية، كانت جدتها قد آوت إبن عمها، الذي كانت السلطات العثمانية تبحث عنه لأنه إغتال ضابطاً. وكانت أم عدنان تروي بفخر وإعتزاز قصة جدتها وكانت تقول بأنها مستعدة أن تفعل ذلك من أجل.... ولقد أظهرت العائلات التي آوتني في الحي الكوردي في دمشق كل الشهامة والكرم تجاهي. ومع ذلك فالظروف التي كانت تمر بها سورية وتطورات الوضع كانت تحتم عليّ أن أتملص من الضيافة المريحة لأصدقائي الكورد لأبحث عن ملجأ خارج سورية، فلا يجب أن يربطني أي شيء بهذا البلد. وقبل أن أسرع فكرت مع ذلك بهذا الرفيق القديم في الجامعة، في لوزان، والذي أصبح وزير الإقتصاد للحكومة الجديدة وهو (كمال حسني) دكتور في العلوم الإقتصادية. كان دوماً مثقفاً بعثياً حكيماً، ديمقراطياً يعظّم الإشتراكية الإنسانية.

وأثناء لقاءاتنا العديدة في دمشق، كان يُظهر غالباً إدراكاً عميقاً تجاه القضية الكوردية في (سورية كما في العراق) ويتمنى أخوة حقيقية بين الشعبين الكوردي والعربي. وبمساندة

بياناته السابقة كتبت له رسالة تهنئة على مشاركته في الفريق الوزاري طالباً منه التدخل لكي يوقف المطاردات التي تستهدفني. وبعد فترة، ختم المباحث باب مكتبي بالشمع الأحمر وأوقفوا أحد مستخدَمي وكثفوا تحرياتهم ليكشفوا مخبأي السري.

لم يكن الوضع ساراً جداً لكورد العراق، حيث أن السلطة الحاكمة في بغداد وبعد إنقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ ضد الجنرال (قاسم) الذي لم يفِ بوعوده المتعلقة بالحكم الذاتي لكوردستان العراق، كانت تستعد لشن حرب خاطفة ودونَ هوادة ضد البارزاني وأنصاره. لقد وصلتني أنباء تفيد بأن الحكومة السورية الجديدة التي هي أيضاً في أيدي البعثيين، سترسل قوات برية وجوية الى العراق لتشارك في المعارك ضد الكورد. وبعد هذه الأشهر العديدة من السرية والخفاء، كان يجب أن أغادر الحي الكوردي لأتملص من براثن السوريين وأرحل في أسرع وقت ممكن نحو الحرية والسلام. ففي لبنان مثلاً، كانت أرض المنفى الأكثر قرباً، كان أصدقائي يعرفون سائق صهريج يجتاز الحدود بشكل منتظم، وتبادلت المحادثات بينهم، وعند فجر أحد الأيام. كان (أبو أنور) قد عرض نفسه ليقودني في شاحنة صهريج حتى حمص، وجاء ليوقظني بهذه الكلمات:

– الصهريج جاهز نستطيع أن نرحل...

7
لبنان

- الهروب الى لبنان
- حياة الجالية الكوردية في بيروت
- مهمة إعلامية بصدد الحرب في كوردستان العراق لدى الصحافة اللبنانية الحرة والدولية
- إعتقال وسجن في بيروت تحت ضغط الحكومة العراقية
- الطرد الى الأردن ومن ثم التسليم الى سورية

كان ذلك في ١٤ حزيران ١٩٦٣، وقبل بضعة أيام كان الجيش العراقي قد شن الأعمال الحربية مجدداً ضد الكورد وإعتقد بإبادتهم في عشرة أيام. وصرح حينئذ الجنرال (عماش) وزير الدفاع العراقي قائلاً:

- إنها جولة قصيرة نقوم بها في شمال البلاد.

وستبدأ المغامرة اللبنانية حسب رأيي بفضل تعاون الكورد الشجعان والمهربين المختصين بالعبور من سورية الى لبنان. كانت مرحلتنا الأولى التي قادتنا الى حمص، قد تمت دون مشقة. وحينما رأت أجهزة التفتيش العسكرية المرابضة على بعد (٣٠) كيلومتراً من دمشق شاحنتنا، أشارت لنا بالمرور. وفي حمص، كشفت لنا جريدة البعث قوائم جديدة سوداء للأشخاص المحرومين، وكان من بينهم العديد من الكورد الذين أعرفهم. وكان بعضهم قد إعتقلوا ونقلوا الى سجن المزة. وسردت الجريدة أيضاً أنباءً تتعلق بالحرب المرعبة القائمة والإنتصار على اللصوص الكورد والإنفصاليين عملاء الإمپريالية الأمريكية. وحسب رأي جريدة البعث، إذا ما وضعت الحرب أوزارها، فإن خائني الوطن سيعاقبون عقاباً شديداً كان المشهد يبعث على الفقر والأسى، ولكن كلما إقتربنا من (بوكي) وهي أرض لبنانية على مدى بضعة كيلومترات يمر فيها طريق حمص من اللاذقية، كان لبنان أكثر فأكثر عزة.

وعلى اليمين هناك حصن الفرسان أو (حصن الأكراد) كما تسميه كتب التاريخ العربية، المحاط بالضباب، كان يشرف على الوادي والسهول. وفي مدخل (بوكى) ظهر المركز العسكري السوري لطيفاً جداً، وتجهزنا لتقديم بطاقاتنا الشخصية، لكننا تلقينا إشارة بمواصلة طريقنا. وبعد بضعة مئات من الأمتار، أوقف حارسي البارع شاحنته أمام حانوت (أبو حسن) الصغير. وعاد منه وهو متضايق، لأن المرشدين لايصلون قبل إحدى وعشرين ساعة.. فقال:

- لايهم، بإنتظارهم سنتناول الطعام ونستحم في طرطوس، إنك معي ولن يصيبك أي أذى.

وأمام نقطة الخروج من (بوكي) أُوقفت عدة سيارات وبدا أنها تُفتش بإنتظام، وإصطفت شاحنتنا خلفها في حين أن قلبي كان يخفق بسرعة. وقلت في نفسي "آمل أن لا يكون إسمي قد أُبلغ الى الأجهزة الحدودية"، وفي نفس اللحظة، جاء عسكري ذو رتبة يرحب بأبي أنور ترحيباً حاراً وأشارله بالمرور دون الإهتمام بالسيارات التي كانت تسبقنا. وبعد (بوكي) كان الطريق يصعد متعرجاً وسخن محرك الشاحنة، فصاح بي أبو أنور في ضجيج المحرك المصم:

- بقي وقت طويل للوصول الى طرطوس، وعلى بعد بضعة كيلومترات من هنا، أعرف مطعماً في الهواء الطلق إشتهر بفراريجه التي تُربى بحرية بالإضافة الى لحمها اللذيذ. فهل توافق على الذهاب الى طرطوس لتذوق هذه الفراريج الريفية اللذيذة؟

- نعم فكرة رائعة، هيا بنا دون تأخير!

فمالت الشاحنة الى اليمين، وأخذت طريقاً ضيقاً. وكان الجبل الصخري الوعر الغني بأشجاره المثمرة، يذكرني بالجبل الذي رأيته أثناء طفولتي في (مادن)، وحثني على الوثوب من الشاحنة لأقفز على العشب اليابس وأتسلق الأشجار. وكان المطعم يقع في مكان فردوسي: فهناك نهر ذو مياه صافية يجري على طبقة حصى مائلة الى الزرقة، وكانت الرمال البلورية تغطي ضفتيه. أما بالنسبة للمطعم المجهز على ساحة، فكان يحيط بالنهر. وكان وجود العديد من الضباط السوريين يجعلني أنتفض وحاولت أن أعود أدراجي، ولكن أبا أنور حاول أن يهدىء من روعي:

- لا تقلق، يأتي هؤلاء العسكريون من أطراف المدينة ليتناولوا الطعام هنا مثلي ومثلك، أنظر إليهم، ترافقهم عائلاتهم ولهم أعمال أخرى بدلاً من الإهتمام بنا.

ومع ذلك ولتجنب أي لقاء مزعج، ذهبنا لنجلس في مكان يشبه الكوخ في نهاية المطعم. وكانت الفراريج تعدو أمامنا وهي تصطاد الجراد والحشرات الأخرى على ضفتي النهر. وطاردها بعض الصبية وأمسكوا بإثنين لنا وقاموا بشيهما على الفحم.

لقد إستفاد (أبو أنور) من إستراحتنا غير المتوقعة للطعام كي يحدثني عن ماضيه. فأثناء الحرب العالمية الثانية، كان قد خدم كمتطوع في الفيلق الحربي في الأردن. هذا الفيلق الذي شكلته بريطانيا العظمى، كان يقوده حينئذ القائد الإنگليزي (كليب باشا). كان هذا الفيلق المؤلف قبل كل شيء من البدو المخلصين للعائلة الهاشمية ثم من الشركس والكورد والأرمن، كان حينئذ يعتبر الجيش الأحسن تنظيماً في الشرق الأوسط. كان جنوده قد إشتهروا بأنهم رجال بواسل وقساة القلوب، فقال أبو أنور:

- كان الناس يخشوننا.

وبما أن الإنگليز كانوا يحكمون في الأردن وفي فلسطين، فقد كانت لدينا حاميات في البلدين. ففي فلسطين كنا في نظر اليهود (غول) الروايات. وذات يوم، رأتني أمينة صندوق السينما أمامها، دُهشت من الرعب وأغلقت كوتها فوراً ولم يستطع مديرها أبداً أن يهدىء من روعها. فقال أبو أنور ضاحكاً:

– لقد رأيت هذه المرأة الشابة فيما مضى، كانت جميلة جداً ودعوتها لشرب كأس، أتعلم ماذا سألتني وهي ترتعد؟ "هل صحيح أن الجنود الفيلقيين يأكلون اللحوم البشرية؟" فقد كانت مقتنعة بذلك، إنها الإشاعة التي تقول ذلك...

حينما غادرنا المطعم، كانت الساعة تشير الى الرابعة، وبعد ساعة، لم يصل مرشدي بعد، وعهدني (أبو أنور) الى (أبي حسن) قبل أن يأخذ طريقه، ورفض أن يأخذ مني أي قرش مقابل الخدمة الكبيرة التي أداها لي. فتابعته بنظراتي وفراقه يشق عليّ حتى إختفى وراء الطريق المتعرج. ولكن عدم إستجوابه في مركز التفتيش السوري. خفف من همومي. فرجعت حينئذ بهدوء الى حانوت أبي حسن الصغير لأحتسي فيه فنجاناً من القهوة. وكان مخزن أبي حسن عبارة عن غرفة دون واجهة، وكان داخلها يستخدم كمستودع مليء بعلب البسكويت وأكياس السكر والبن والطحين. ورأيت على الرفوف المطمورة بظلال خفيفة أجهزة راديو وتلفزيون. وإستطاع أبو حسن أن يبني فوق المخزن شقتين، الأولى له ولزوجته والثانية لأبنه حسن الذي تزوج، بالإضافة الى تجارتهم البسيطة، كان الأب والإبن يتعاملان بالزراعة أيضاً. فكانت حقولهم للذرة والقطن والتبغ تمتد خلف منزلهما. وكان أبو حسن الذي يبلغ من العمر خمسين عاماً، يحب أن يجعل من نفسه شيخاً عجوزاً مثلما كان دارجاً في الشرق الأوسط حيث يُعتقد أن الشيخوخة توحي بالحكمة وتجعل الرجل رزيناً. كان يُظهر تعاطفاً مع الكورد ويكره البعثيين. وكان الكورد حسب رأيه رجالاً شجعان أوفياء وصادقين، بينما لم يكن البعثيون سوى إنتهازيين ومنافقين. وكان على قناعة بأن الكورد يواصلون ضرباتهم لهؤلاء البعثيين في العراق ويصلي يومياً لهذا التفاؤل.

وبينما كانت هذه الكلمات الودية تهدّيء نفسي، وإذا بصوت إنفجارين جعلانا ننتفض. فقال أبو حسن وهو ينهض من مقعده بهدوء:

– إبق هنا، سأرى ما هناك. وبعد عشر دقائق عاد ضاحكاً:

– إنه حسن الذي أطلق النار ببندقية صيده. على حية ضخمة إلتفت حول كرمة خلف المنزل. فقد كان يخشى أن تدخل من النافذة الى الغرفة التي ينام فيها إبنه البالغ من العمر ثلاثة أشهر. وتمزقت الحية تماماً، وإن كان ذلك سيسرك هيا لتراها.

فقلت له:

– شكراً، على الرغم من أنني قتلت منها الكثير ، فإن الحية تبعث القشعريرة في نفسي.

فإن حلمت بحية ولم أقتلها ، أصاب بمصيبة في اليوم التالي. وبما أنني لاأعتقد بما يتعلق بالحيات فإن قتل إبنك لإحداها هو فأل خير.

لقد تحول مخزن أبي حسن شيئاً فشيئاً الى صالون، يجتمع فيه القرويون القادمون من أطراف المدينة ليتناقشوا. وكانوا جميعاً بنفس العمر تقريباً ونفس الشارب الكثيف المتدلي ويرتدون ثياباً تشبه ثياب أبي حسن. وكانت بناطيلهم تبدو وكأنها مخيطة من نفس القماش الأسود، وكانت قمصانهم من البالة (الألبسة المستعملة) المستوردة من أمريكا والمبيعة بأسعار زهيدة من قبل الباعة المتجولين في بيروت وطرابلس. وبهذه الهيئة كانوا يظهرون مظهر أناس شاخوا قبل أوانهم مشغولي البال، وقورين. وأراد (حسن) أن يدهشهم بصنيعه وتمهل في الحديث لهم عن أبعاد ضحيته المفرطة. هذا صحيح أنه حينما تروي قصة حية في الشرق الأوسط فلاتنتهي أبداً، فلكل إمرئ قصة يرويها. وفي ذلك المساء، لم تُسرد تلك القصة لأن محدثيّ بدوا وكأن لهم مشكلات خفية. فقد كانوا يحتاجون للمياه لإرواء أراضيهم، فالحبوب التي كان كبار التجار يستوردونها من أستراليا والولايات المتحدة وكندا، كانت تباع بسعر منخفض جداً وتسبب خسارة حبوبهم. لقد كان السعر المحدد من قبل إدارة حصر التبغ والتنباك زهيداً. وكانت المنطقة مهملة وتحتاج الى طرق مناسبة بالإضافة الى وسائل النقل. أضف الى ذلك، فمنذ أن وضعت سورية أجهزة مراقبة في مدخل ومخرج (بوكي) كان القليل من السوريين يتجرأون على الوقوف أمام حوانيتهم ليتسوقوا منها. وكان على معظم صغار التجار إغلاق محلاتهم ولم تكن الحكومة اللبنانية تهتم بهم إلا لتحصيل الضرائب منهم. ولم يكن الموظفون يفكرون سوى باللجوء الى الرشوة. أما بالنسبة الى النواب فكانوا قد نسوا وعودهم الطيبة أثناء الإنتخابات. وكان كل شيء يدفع الشباب الى الهجرة، فإستقر بعضهم في طرابلس وبيروت، بينما إتجه البعض الآخر الى أفريقيا وكندا وحتى أستراليا.

لقد مكثت ساعات طويلة أصغي الى شكاوى هؤلاء المنبوذين في لبنان. وفجأة ظهرت فتاة صغيرة في شقة الباب، وكان مرشديّ قد وصلوا، وبعد قليل تمنى أبو حسن لي رحلة سعيدة مكتفياً بخمس ليرات لبنانية لقاء ضيافته ووساطته. وأخذني إبنه الى الجانب الآخر من الطريق حيث كان المعاون ينتظر وكان شاباً في العشرين.

فإجتزنا بساتين على طريق وعرة قبل أن نلمح أمام سيارة مرسيدس براقة، رجلاً قوياً هادىء البال مفعماً بالقوة والنشاط. فأخذه حسن على الطرف وأوصاه برعايتي. ودامت محادثتهما على إنفراد، وأخيراً أكد لي حسن أن السيارة محجوزة لي بسعر (١٥٠) ليرة لبنانية حتى بيروت. وأقسم السائق طوني أن لايحمل أي راكب آخر لكي يتجنب أي حدث يعرضني للخطر أو الشبهة. وبما أنني قبلت شروطه فقد سارت السيارة نحو بيروت، وبعد عشرة كيلومترات خرج رجل من مكان كثير الحصى. فقال السائق الذي نزل ليتحدث معه:

– إنه أخي. وبحجة وجود قضية عائلية لحلها. مال الى اليسار وأخذ طريقاً وعراً. وقفت

سيارتنا في ساحة إحدى القرى ذات المنازل المبعثرة، وأكد سائقنا أنه لن يتأخر سوى بضع دقائق، وإختفى في الظلام. وبعد ساعة عاد بصحبة رجلين وسيدة ترتدي شرشفاً أسود وفي يديها طفلان. وقبل أن أعاتبه على تأخره إقترب (طوني) مني وقال بلهجة مؤثرة:

- لاتؤاخذني إن كنت قد أخرتك طويلاً. كان عليّ أن أنتظر وصول هؤلاء الفقراء الذين هم في نفس وضعك ويجب أن يصلوا الى طرابلس. ألديك مانع من أن يرافقونا ؟

- بالعكس، فأنا مستعد لأترك مكاني لأي شخص يرغب في الهروب من الجحيم السوري. فقال (طوني):

- إن هذه ليست مشكلة. على أية حال في المرة القادمة، أؤكد لك بأنك لن تُحرَج أبداً.

فأخذت السيارة طريقها وبدأ (طوني) الذي رضي بغنيمته الليلية، يدندن أنغام المطربة صباح وفيروز، نجمتا الغناء الشعبي اللبناني. وفي مفرق الطريق، آثر أن يسلك الطريق الأيمن الذي كان وعراً وجبلياً لأنه كان مقتنعاً أنه لن يصادف فيه أي رجل أمن أو شرطة. وفي دوي رهيب، إرتقت سيارته المرسيدس منحدراً شديد الوعورة، وفي اللحظة المحددة حيث أصبح المسير سهلاً، لمحنا مصابيح سيارة قادمة تجاهنا، فأطفأ (طوني) أنواره على الفور وتوقف على حافة الطريق. أما السيارة الأخرى التي تنيرها مصابيح التلاقي فقط، كانت تقترب منا بتمهل:

- ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ فأجاب طوني دون إضطراب:

- أعتقد أنهم رجال الدرك.

فسألته وأنا أتذكر إعتقالي وسجني:

- ماذا سنفعل إن كانوا فعلاً رجال الدرك؟

- كن رابط الجأش ولاتجب على الأسئلة التي سيطرحونها عليك. إني أعلم كيف أحدثهم. سيكون كل شيء على مايرام صدقني.

وبعد ثوان توقفت سيارة (جيب) مقابل سيارتنا ونزل منها أربعة من رجال الدرك. فأسرع (طوني) نحوهم وحياهم بحفاوة وإستطاع أن يأخذهم في الجانب الآخر من الطريق ليتفاوض معهم. فقال عريف الدورية:

- لا، عشرون ليرة، لكل منهم خمس ليرات.

وبينما كانت المساومة تجري، إبتعد أحد رجال الدرك عن الدورية وإقترب من سيارتنا. إنه جدي وحازم، تحقق من هويتنا، ولم يستطع جاري أن يحبس كلامه فقال:

- أنا سوري وصحفي.

- آه، آه، سوري وزيادة على ذلك صحفي!

تأتون إذاً الى هنا لتذموا بلادنا في الصحافة السورية. فقال الصحفي مصححاً كلامه:

– لاشيء من ذلك والحقيقة أنني لاأستطيع العيش في سورية وأتيت للبحث عن عمل في لبنان.

– هكذا إذاً، تأتي لتنافس صحفيينا بينما البطالة سائدة. فأجاب الشاب:

– إن لم أجد عملاً في مجال الصحافة، فسأقوم بأي عمل كان، حتى ولو كنت خادماً في مقهى، أو بائع أحذية إن دعت الحاجة، وبفضل الحرية السائدة في بلادكم وفي العواصم العربية التي تلتزم بالحرية، فإننا نستطيع دوماً أن نتدبر أمرنا عندكم. فقال الدركي وهو يستدير نحوي ليسألني عن مهنتي:

– حسناً، سنرى ذلك.

لقد لزمت الصمت بناءً على نصائح طوني. ومقابل عنادي وإصراري، أمرني بفتح الحقيبة الصغيرة التي كانت بين قدمي وبدأ يفتش في أدواتي الشخصية، وإذا بـ(طوني) يعود فرحاً، فقد سُويت الأمور، سنتابع سيرنا. وكم الطريق الذي علينا أن نقطعه دون مكائد. إضافة الى ذلك، كان علينا النزول مرات عديدة يقودنا معاون السائق في طرق ملتوية ووعرة وطويلة وشاقة. أما السائق والسيدة المحجبة وأولادها فقد ظلوا داخل السيارة. وكلما توقفت السيارة أمام مخفر الدرك، كانت السيدة تقول أنها لبنانية، لأنه في ذلك الوقت، لم تكن المرأة اللبنانية قد حصلت على بطاقتها الشخصية بعد، أو أنها معفاة من الصورة الشخصية.

كان الدرب الأخير الذي سرنا عليه للإلتفاف على مخفر الدرك، شاقاً وطويلاً، فكان يمر عبر بساتين الكروم المزروعة مسندة الى جدران مرتفعة جداً. أما المعاون الذي سار في هذا المكان عشرات المرات، فقد كان يعرف الأرض وينتقل دون مشقة. وكان المسافران الآخران يتبعانه عن كثب. أما أنا، فقد تنملت ساقاي نتيجة الجمود الذي ظل شهرين كاملين في الحي الكوردي. وكنت أجد صعوبة في السير، وخاصة في التسلق. وحينما إرتقيت جداراً، خرت حجرة كبيرة تحت يدي. فسقطت وجرحت قدمي اليمنى. بقيت لحظة قرب الجدار غير قادر على الحراك، ولم أسمع خطوات رفاقي. وبذلت جهداً مضاعفاً لألحق بهم، فلم أستطع. ووجدت نفسي وحيداً، تائهاً وسط الكروم. فعزمت على طلب النجدة، فصاح دليلنا غاضباً:

– لم تصرخ هكذا، أتريد أن تنبه زارعي الكروم، وتجعلنا نُعتقل؟

– ولكن لاأستطيع السير، أنظر الى حال قدمي. فصاح:

– لا تهمني قدمك، سِر، وإلا سأتركك هنا وأنصرف.

– لا أستطيع التقدم أَبداً، دعني هنا وإرحل.

– إعطني يدك وإبذل جهدك لتسير بسرعة.

كنت أعـاني آلاماً مـبرحة في قدمي لأسـير بضعـة مئـات من الأمتـار التي تفصلنا عن السيارة. ولحسن الحظ، وبعد هذا التسلق المشهود، لم ننزل أبداً قبل طرابلس التي وصلنا إليها عبر طرق غير مباشرة تبخر فيها رفاقي بلمح البصر. وبعد إستراحة قصيرة لتعبئة البنزين، تابعت سيارتنا طريقها الى بيروت، وأشار إلينا دركيان بالتوقف، فإقشعر جسمي، وقلت في نفسي أنني إقتربت من هدفي فهل سأعتقل؟

– هل أنتم ذاهبون الى بيروت؟ فأجاب السائق:

– نعم.

– إذاً يمكنكم أن تنقلونا معكم لأن هناك متسعاً من المكان.

فقال طوني بعد أن رأى البندقية الحربية التي كانت على كتفيهما:

– بكل سرور، إصعدا!

وهكذا جلس الدركيـان اللبنانيـان في نفس السيـارة التي تحوي كوردياً سورياً يدخل الى لبنان بطريقة غير شرعية. وفي الطريق، وبعد أن جلسا بإرتياح، حاولا أن يتحادثا معنا، وبما إن السائق وحده كان يتكلم، فقد ساور الرقيب الشك حول جنسيتي، فقال بلهجة بيروتية:

– آمل أن تكونوا جميعاً لبنانيين! فأجاب السائق بحزم:

– بالتأكيد نحن كذلك.

إن وجود رجال الدرك سيكون صغيراً، فبالقرب من بيروت، أوقف رجال الدرك سيارتنا وأمرنا أحدهم قائلاً:

– أخرجوا بطاقاتكم الشخصية! ولم يدم قلقنا طويلاً لأن الرقيب صاح من داخل السيارة على الفور:

– عبثاً، لقد فتشناهم قبل الآن.

فإعتذر الدركي وسمح لنا بمتابعة السير، ولازالت أمامنا مصاعب، فقبل مدينة بيروت إستدار نصف دورة وحث الدركيين على النزول، فسألا قائلين:

– ولكن لماذا؟

فتذرع قائلاً:

–آه، لقد تذكرت أنني يجب أن أمر من الأعلى وليس من طريق الميناء.

ونفذ الدركيان وبشكل عفوي ونظرا إلينا ونحن نرحل. وبعد بضعة تحولات، أنزلني طوني في ساحة المدافع، وكانت الساعة تشير الى الثانية صباحاً. لقد كان دخولي اللاشرعي الى لبنان يحظر عليّ بالطبع النزول في فندق. فأخذت سيارة أجرة للذهاب الى (زوراب عينون)

في حي كركون الدروز حيث كنت أعلم أن الخالة (زهرة)[٧٦]. ستستقبلني بحفاوة وإخلاص الأم. وحينما قرعت باب دارها، كانت الساعة تشير الى الثانية صباحاً، وعندما سمعت صوت ضرباتي المتكررة، نزلت بصعوبة من سريرها وتقدمت بخطوات متثاقلة، وسمعتها تسألني باللغة العربية وبصوتها الخفيض:

– من الطارق؟

قلت:

– ضيف غير متوقع.

وما إن رأتني أعرج، حتى جن جنونها، وقالت:

– ماذا جرى لك؟ إنك لا تستطيع الوقوف. أمريض أنت أم مصاب برصاصة؟ إروِ لي ما جرى لك.

وبما أنها كان يشق عليها الوقوف لفترة طويلة، فقد ذهبت لتوقظ إبنة أخيها (بشيرة) البالغة من العمر تسعة أعوام فقط، والتي كانت معتادة على مساعدة عمتها المريضة، وأسرعت بتحضير طست الماء المغلي. وأعتنيتُ بجروحي بنفسي. وبعد عشرة أيام، كنت قادراً على التنزه في المدينة وزيارة أصدقاء أمناء، وبما أنني كنت محروماً من البطاقة الزهرية التي كان الأمن اللبناني يمنحها للسوريين الذين يدخلون الى لبنان بصورة قانونية، كان عليّ أن أكون متيقظاً في لقاءاتي وتنقلاتي. وإثر محاولة الإنقلاب الفاشلة للحزب الشعبي السوري التي وقعت ليلاً في حي سان سلڤستر عام ١٩٦٢، فقد كانت السلطات اللبنانية متيقظة. ففي وسط بيروت، وأحياناً خلال النهار، كانت هناك قوة طوارىء تسمى (اللواء ١٦) تقوم بتفتيش البطاقات الشخصية، وهذا يعني أن البطاقة الزهرية كانت ضرورية جداً.

كان هناك أيضاً كوردي سوري ينتمي الى الحزب الشيوعي السوري، قد فر من سورية بنفس ظروفي، إستطاع الحصول على البطاقة بواسطة الحزب الشيوعي اللبناني، ووعدني بالحصول على واحدة لي، وبعد أسبوع لم أكن أخشى التجول بحرية في شوارع بيروت وكل لبنان ماعدا الحدود الجنوبية. وكنت أستطيع مقاربة الأوساط الكوردية في بيروت بحرية.

في ذلك الوقت، كانت هناك جالية كوردية[٧٧] كبيرة في بيروت، وكانت قد تشكلت تدريجياً منذ الحرب العالمية الأولى، ليصل عددهم عشية أحداث عام ١٩٧٥ الى (١٠٠) ألف نسمة. وكان ٩٥٪ من كورد بيروت حينئذ من ولاية ماردين في كوردستان تركيا. وكانت هناك أسباب إقتصادية وسياسية أرغمتهم على الهجرة. وحتى عام ١٩٢٥ لم تكن الحكومات التركية المتعاقبة تستطيع فرض هيمنتها على تلك المنطقة، وكان يستحيل عليهم تطويع الجنود فيها. وبعد سحق الثورة الكوردية عام ١٩٢٥، خضع هذا الإقليم لمصطفى كمال وإختار عدد كبير من شباب الإقليم الهجرة فراراً من الخدمة الإلزامية لدولة يجهلون لغتها.

وكانت هناك كارثة إقتصادية أرغمتهم على محاولة النزوح، فقد هاجم قمل الـ(فيلوكسيرا) بساتين الكروم في ماردين وحرمت قسماً كبيراً من السكان من لقمة عيشهم. وأخيراً فإن هناك عوامل إجتماعية أدت الى تجزئة القبيلة الرئيسية التي كانت تعيش في المحمودكيون (وهم أنصار محمود)، والأتمانكيون (وهم أنصار عثمان). وكانت النزاعات القائمة بينهم تعود غالباً لأسباب تافهة تتحول أحياناً الى معارك دامية، مخلفة العديد من الجرحى والقتلى في ساحة المعركة. وقبل إستيلاء الأتراك الحقيقي على المنطقة، إستطاع شيوخ وحكماء القبائل المتناحرين التوصل الى إيقاف الإقتتال والهدنة وتضميد الجراح قدر المستطاع، لقد كانوا يجهلون حينئذ كل شيء عن العسكر التركي وعن بيروقراطية (تسلط الدواوين) الشرطة والسجن، وحينما إنطلقت هذه الآلة الثقيلة، فقد آثرت مئات العائلات كاملة المغامرة بحياة مليئة بالمكائد في البلاد الأجنبية، التي كانوا يرون بأنها أقل تذليلاً من التحقيقات التعسفية التركية.

لم تكن حياة المهاجرين الكورد في بيروت سهلة أبداً. إذ كان معظمهم قد نفذوا شروطاً مفروضة للحصول على الجنسية اللبنانية. رغم إن العشرات من أصل الألوف قد حصلوا عليها، أما بالنسبة لطلبات الآخرين، فقد ظلت بغرابة معلقة بدين طالبي الجنسية. وكان يُستنتج أن تجنس الكورد المسلمين قد يحطم التوازن الطائفي الداخلي في لبنان ويؤدي الى الإضرار بالمسيحيين اللبنانيين، فكان الآلاف من الأطفال الكورد يُحظر عليهم الدخول الى المدارس الرسمية، بينما كان المرضى يُحرمون من علاج المشافي الحكومية. وحاولت بعض الشخصيات السياسية اللبنانية عبثاً إزالة هذا الجور. وحينما كان الزعيم الدرزي (كمال جنبلاط) وزيراً للداخلية، ولم يستطع التغلب على عناد الأوساط المسيحية اليمينية، التي كانت قوية آنذاك في بيروت، فقد قرر إصدار بطاقة إقامة خاصة بالكورد المحرومين من أوراق إثبات الشخصية القومية، تسمح لهم تلك البطاقة بالعيش والعمل بحرية في لبنان.

شيئاً فشيئاً، بدأت الإتصال مع الكورد القوميين، ولاسيما مع الكورد ذوي الجنسية اللنبانية وتشجيعهم على تأسيس جمعية خيرية كوردية يمكن أن تبذل نشاطات ثقافية ورياضية وتأسست تلك الجمعية بعد بضعة أشهر بدعم من كمال جنبلاط.

وبعد فترة، توافد الكورد ومن كل الجهات الى المركز الإجتماعي(٧٨) والطبي والثقافي والرياضي الكوردي. وبالرغم من بقاء مشاعر حكومة الحزبين بين المحمودكيين والعتمانكيين، فقد ثابروا جميعاً على تطوير ذلك المركز. أما من جهتي، ولكي لاألفت إنتباه الناس، لم أكن أتردد أبداً على المركز ولكنني كنت أتابع بإهتمام جميع نشاطاته. ولقد أُعد مكان خاص لكي أتمكن من تعليم اللغة الكوردية فيه. وبالرغم من أنني كنت في بيروت، لم تغرب عن بالي أحداث كوردستان، فقد كانت بعض الشخصيات الكوردية العراقية المعارضة لنظام بغداد والمتعاطفة مع الحركة القومية الكوردية، يعيشون في العاصمة اللبنانية ويتابعون عن كثب

الوضع في العراق وإستطاعوا أن يطلعوني على كل ما كان يجري فيها في المجال السياسي والعسكري. وكانت المعلومات التي يحصل عليها هؤلاء السياسيون المخضرمون سراً تشبه تلك المعلومات التي كان مراسلو البارزاني يرسلونها الى بيروت وتكذّب الأنباء المنشورة من قبل بعض صحف بيروت المموّلة من بغداد. وفي الحقيقة، أن الجيوش العربية التي إنتصرت في السهل، كانت تواجه مقاومة عنيفة في الجبل، وألحقت بها خسائر فادحة. فكررت نداءات الإستنجاد بالبعث السوري، وكانت سلطة بغداد تشعر أنها مهددة حتى إنها طلبت من تركيا وإيران التعاون معها ضد "العدو المشترك". فأُرسل ضباط أتراك وإيرانيون الى مدينة (كركوك) لوضع خطة حربية مشتركة(٧٩) ضد "المتمردين في شمال العراق".

كان يهمني أن أكون على إتصال مع كبريات الصحف اللبنانية المستقلة لكي أُنير الرأي العام اللبناني والعربي حول حقيقة الوضع في العراق. وبذلت جهوداً جبارة لإقناع رؤساء تحرير جريدة (الحياة) و(النهار) و(لسان الحال) و(شرق النهار) و(المساء). ووعد الجميع بنشر المعلومات التي أزودهم بها وتخصيص مقالات أساسية للقضية الكوردية.

"فبفضل البطل الكوردي العظيم صلاح الدين الأيوبي إستطاع العرب اليوم الوقوف على أقدامهم والعيش بهناء والحفاظ على لغتهم وثقافتهم، إن إنكار هذه الحقيقة جهل مطبق بالتاريخ وبالخدمات التي أداها لنا الشعب الكوردي البطل. لقد هاجم حزب البعث الكورد في العراق، وإحتقر التاريخ العربي وحطم الأخوة العظيمة التي أظهرها لنا هذا الشعب المقاتل في أحرج الأوقات من تاريخنا". كان ذلك مقال جريدة (الحياة) للمؤرخ العربي الشهير (صلاح الدين منجّد). أما بالنسبة لصحيفة (لسان الحال) فقد إنتقدت الآيديولوجيا الفاشية لحزب البعث ودعتها الى الرأفة والديمقراطية أكثر. أما جريدة (الشرق) من جهتها فقد نشرت نص إيضاح كنت قد أرسلته إليها بإسم مستعار يتعلق بمقال خاطيء لرئيس تحريرها. كما إنني أجريت إتصالات أيضاً(٨٠) مع الوكالات الدولية ومراسلي الصحافة والإذاعة والتلفزة من أوروبا وأمريكا. وبدأت شيئاً فشيئا تنطلق بإنتظام معلومات صحيحة تتعلق بأحداث كوردستان العراق في بيروت، وتكشف زيف الروايات الخرافية الحكومية. وكان الكورد يقاومون في ساحات المعركة ضد الجيوش المتحالفة من العراق وسورية(٨١) المزودة بالطائرات والدبابات والمدافع وقنابل الناپالم. وحينما تعزز موقف العراق بهذا النصر، أنفق الكثير ودون حساب لشراء الصحف اللبنانية المستقلة أو إسكات الصحف الأكثر عناداً. ولكن المعلومات الموضوعية حول كوردستان العراق لن تختفي أبداً. وإستطاع سفير العراق في بيروت، أن يتحقق من هوية من يغذي بشكل دائم وأكيد، الصحافة اللبنانية والدولية بالأخبار العراقية. وبالتواطؤ مع مدير الأمن اللبناني، وضع خطة إستهدفت إعتقالي دون علم من (بيير الجميّل) الذي كان آنذاك وزيراً للداخلية. فقال لي (الجميّل) أثناء إحدى المقابلات:

- إنني أفهم مأساتك جيداً، لأنك في نفس الوضع الذي نعيشه نحن المارونيون اللبنانيون

الى درجة معينة. إن القوميين العرب يريدون أن نتمثل بهم تماماً لأننا نتكلم اللغة العربية. نعم، نتحدث العربية ولكننا لسنا بعرب. لنا تاريخ آخر وثقافة أخرى وطريقة أخرى في التفكير والتصرف والرؤية. فمادام هؤلاء العرب لم يعزموا على إحترام خصوصياتنا، فإننا على حذر بإستمرار.

في صبيحة ١٥ شباط ١٩٦٦، وقف ثلاثة من عناصر الأمن اللبناني على باب منزل الخالة (زهرة)، وقالوا لـ(بشيرة) التي فتحت لهم الباب:

- نريد التحدث الى نورالدين زازا. ودون إنتظار قول "تشرفنا" أسرعوا بالدخول الى الصالون الصغير الذي كانت غرفتي تطل عليه، وتقدم رئيس الدورية مني قائلاً:

- أنت الدكتور زازا؟ أنا من الأمن اللبناني، هاهي بطاقتي، لدينا الأمر بأخذك وإستجوابك.

- أي إستجواب؟

- لا تخف ستُطرح عليك بعض الأسئلة.

- بما أنني إعتدت على أن أحضر أمام الأمن لطرح بعض الأسئلة فقد سمحوا لي الإتصال مع محامي. فقال رئيسهم وهو ينصحني بالتجهز بسرعة وعدم محاولة الإفلات منهم:

- إتصل من مكاتبنا إن كان ذلك ضرورياً.

كان منزل الخالة (زهرة) ذا طابق واحد، ويحتوي على نوافذ عديدة، وكان يطل على حديقة ويساعد على الهرب. ولم تدم هذه الفكرة سوى لحظة. ولكن بما أنني كنت أجهل ما سيُفعل بي، فقد ترددت في القيام بمخاطرات بدت غير نافعة. كنت على وشك مغادرة المنزل برفقة حراسي، وإذا بالخالة زهرة تسألني باللغة الكوردية عما يجب أن تفعل بكتبي(٨٢) ومراسلاتي، وإستطعت أن أقول لها بأن تخفيها لدى الجيران. وبعد عشرين دقيقة وجدت نفسي مراقباً بإحكام في إحدي غرف بناية الأمن اللبناني. ولم تمض ساعة حتى أخذني رجال الشرطة الى منزلي. فلكي تعتقلني وتقدمني للقضاء، كانت إدارة الأمن بحاجة الى أدلة بادية. ولقد جاؤوا لتفتيش منزلي بهذا الهدف.

كنت أخشى أن لايسع الوقت للخالة زهرة لإخفاء كل المستندات المعرضة للشبهة، وكنت أتمنى أن يقع حادث أو يحصل عطل يؤخر وصولنا الى مسكنها. ولم يكن هناك أي شيء، ورأيت بأعجوبة لدى دخولي الى غرفتي وعلى الفور، أن علب الكتب المكدسة في أعلى الخزانة قد تبخرت بالإضافة الى جميع الوثائق الأخرى. ومع ذلك فقد أسرع رجال الشرطة الثلاثة لفتح الخزانة وسحب دروج المكتب، وتفتيش تحت السرير وتحت السجادة ولكن عبثاً. فقد نُظف كل شيء بإهتمام وعناية، وبعد نصف ساعة من التنقيب. أعادوني الى الأمن بخيبة أمل. وأُدخلت الى رئيس المفوضية وهو (عمر نويري) المشهور بعدائه الشديد للجالية

الكوردية في بيروت.

لقد إعتاد على إعتقال وضرب وتعذيب الشباب الكورد المشتبه بوجود المشاعر القومية لديهم. وكان هذا المسلم السني قد ناضل أيضاً برباطة جأش لمنع كمال جنبلاط من السماح للكورد بفتح مركزهم الإجتماعي والثقافي، هذا هو الرجل الذي إستقبلني ذو الحاجب العابس والصوت المرعد.

– لماذا تزور الصحف اللبنانية والوكالات الأجنبية في بيروت، التي تطعن بالصداقة اللبنانية– العراقية؟ فبسببك توشك الحكومة العراقية على منع رعاياها من الإصطياف في لبنان. فأجبته:

– لو قرر العراق يوماً تنفيذ قرارات كهذه، فإنها بسبب الحرب التي يشنها ضد الكورد. لأن هذه الحرب تكلف غالياً، وبالرغم من العائدات الضخمة لنفط الكورد، فإن صناديق الدولة ستُفرغ تماماً. وأن إيقاف هذه الحرب هو من مصلحة لبنان، وبدأت بغداد تعلم الحكم الذتي المتواضع الذي يطالب به الكورد. فأجاب (نويري) ثائر الأعصاب قائلاً:

– بما إنك أجنبي، لايحق لك أن تهتم بالسياسة في لبنان، أما وإنك تفعل ذلك حتى في مكتبي، فهذا مرفوض ولن نسامحك في بلدنا.

– في هذه الحالة إمنحني إجازة مرور وأمهلني بضعة أيام لكي تخلص مني.

– معك إجازة مرورك ومهلة أربع وعشرين ساعة لمغادرة لبنان وعدم العودة إليه دون إذن مسبق.

فوافقت على شروط نويري ولكنه بإنتظار رحيلي كان يريد أن يعتقلني فقلت له:

– ليس لك أي حق مشروع في إعتقالي، إنني أستأذن الحديث مع محامي. فقال ضاحكاً:

– ليس بوسع محاميك إلا أن يأتي ليراك، يمنع الإتصال بالخارج من هنا.

بهذه الكلمات، نادى إثنين من رجاله نقلاني حالاً الى غرفة نزعا فيها ربطة عنقي وحزامي وأربة حذائي. ثم وعلى بعد بضعة مئات من الأمتار من هناك نُقلت الى أمام باب حديدي ذي قضبان حديدية سميكة. ففتح أحدهما الباب ودفعني الى مكان يشبه الكهف، سيء الإضاءة ومليء بالأجساد الممددة في كل مكان. فبقيت فترة لابأس بها واقفاً وسط الغرفة وأجلت طرفي حوله فإذا هو مكان لايكاد يبلغ طوله أربعة أمتار وعرضه مترين ونصف المتر، ولايدخل إليه النور والهواء إلا من خلال القضبان الحديدية. وكان محروماً من الماء الجاري والمراحيض. وفي آخر الغرفة، كان البصاق وأعقاب السكائر تسبح في طست كبير من الألمنيوم مليء بالماء. وحينما رآني أحد السجناء ساكناً مترهلاً، دعاني الى الجلوس على حصيرة بالقرب منه. كان سورياً أُوقف أثناء تفتيش عسكري ذات ليلة حيث كان قد نسي لسوء حظه بطاقته

الزهرية في بيته. وبدلاً من أن يذهب رجال الشرطة الى منزله للتأكد من أقواله، فقد دسوه في هذا المكان ومضت خمسة أيام دون أن يهتم المسؤولون لمصيره وكان ينتظر. كان الكثير من السجناء الآخرين مثله، ضحايا إزدراء إنسان، وتواني وعدم مباشرة وفساد البيروقراطية القديمة. وكان أحد الباكستانيين، الذي أضاع جواز سفره، قد تعفن فيه منذ ستة أشهر... أما من جهتي، فقد أمضيت فيه خمسة أيام دون أن يأتي أي شخص ليستخبر عني. أخيراً وفي اليوم السادس، أخرجت من الزنزانة لكي أحضر إجازة مروري. وبما أني لحسن الحظ كنت قد جهزت صور جواز السفر فلم تدم العملية سوى ساعة. وحسب وعد المفوض كانت لدي مهلة ثمان وأربعين ساعة لمحاولة الحصول على تأشيرة دخول الى بلد أوروبي غربي. ولكن فجأة كانت فكرة بقائي حراً يومين في بيروت تزعج الأمن ولاسيما إحتمال القيام بإجراءات لدى الشخصيات اللبنانية المرموقة التي كنت أعرفها شخصياً، كأمثال (كمال جنبلاط، بيير الجميّل).

فقال المفوض:

– سيمنع منعاً باتاً مغادرة هذا المكان حاول الإتصال مع السفارات التي تريدها عن طريق الهاتف. لقد كان هذا الإقتراح غير معقول، فلا شيء سوى الإشارة الى المكان الذي كنت أتصل به هاتفياً، كنت أحاول أن أثير رفض الدبلوماسيين المحنكين ومع ذلك، إستطعت أن أتحادث مع القنصل العام الهولندي وقنصل ألمانيا الإتحادية الذي كنت قد تحدثت إليه في السابق حول المسألة الكوردية. فقالا كلاهما:

– من الضروري أن تمر على مكاتبنا لتقدم طلباً رسمياً.

وبما أن الأمن كان يحاول أن يبعدني عن البلاد، فقد تخيل إحتمالاً آخر. في ذلك الوقت كانت تكفي بطاقة شخصية بسيطة للمرور من سورية الى الأردن. وعلى الرغم من إقامتي في لبنان كنت أستطيع الذهاب الى عمان دون مشاكل، لقد كان ذلك رأي المفوض. أما من جهتي فقد كنت مقتنعاً بأنني سألاقي صعوبات في الأردن. أما مسؤولو الأمن فقد عاندوا في مشروعهم. وفي مساء ٢١ نيسان أخذوني الى مطار بيروت حيث أرغموني على شراء تذكرة طائرة بيروت- عمان (ذهاب وإياب)، قبل أن يسلموني الى أحد عملائهم المسؤول عن أمن الطائرة. وبعد ساعة، كانت الطائرة تهبط في الأردن. وفي نقطة تفتيش جوازات السفر، إنتفض ضابط الخدمة، ويبدو أنه شركسي حاد الطباع، مثلما يُلدغ بسرب من النحل، فسألني بلهجة عربية بدوية مكسورة:

– من أين أنت قادم؟

– من بيروت.

– أين جواز سفرك؟

وحينما شرحت له من أنا ومافعله بي الأمن اللبناني ، هز رأسه وهو يردد:

- هذا أمر غريب.

بهذه الكلمات أخذني الى مكتبه، وإتصل منه هاتفياً مع قيادة أركان الجيش والسلطات المختصة. وبعد نصف ساعة وضعتني سيارة جيب عسكرية أمام مبنى أركان الحرب الأردني، وكان هناك ستة ضباط إحتلوا الغرفة على الفور قبل نقلي الى مكان آخر. وأراد رائد شاب طويل القامة ذا ملامح واضحة، أن يتعرف اليّ:

- أنا كوردي.

- كوردي؟ كيف؟ أقصد من أي حزب؟

- فقط كوردي.

- أتساند البارزاني؟

- إنني موافق على نضاله كأي إنسان كوردي.

- قل إذاً، بإنك إنفصالي أو شيوعي.

- البارزاني ليس شيوعياً ولا إنفصالياً. فهو ليس إلا كوردياً شريفاً يناضل من أجل حقوق شعبه.

فأمرني محدثي قائلاً:

- أكتب لنا لمحة موجزة عن حياتك ونشاطاتك.

وبما إنني كنت منهك القوى، فقد قبل أحد الضباط القيام بدور أمين السر وسجل المراحل الحاسمة من حياتي ونشاطاتي كمناضل كوردي ثم تركني وحيداً وانصرف بأوراقه. لقد دامت المداولات طويلاً، في حوالي الساعة الواحدة صباحاً جاء أحد الجنود يبحث عني ليقودني الى مكان لم يشأ أن يطلعني عليه. فكانت سيارة الجيب تصعد هضاباً كثيرة بعضها متعرجة أكثر من الأخرى. حتى وصلت الى عمّان وإجتازت شارعاً طويلاً، قليل الإضاءة لتتوقف أخيراً أمام مخفر الشرطة. وحينما دخل إليه ذهب شرطي الحراسة لإيقاظ ضابط المكتب. كان هذا الضابط بقامته الطويلة وشعره الأشقر ووجنتيه البارزتين يبدو دون شك بأنه من أصل قوقازي، وحينما سألته بالتركية ليحدثني عن المصير الذي ينتظرني، نظر إلي بعينيه المندهشتين، ذواتا الجفنين المتورمين ولكنه لم ينبس ببنت شفة ودخل الى مكتبه وقرأ الأوراق التي كان حارسي قد سلمه إياها، فتحدث هاتفياً. وهمس في أذن الحارس معيداً له الوثائق وسيارة الجيب التي حُشرنا فيها ثانية إستدارت نصف دورة وسارت قليلاً لتتوقف على بعد كيلومتر واحد أمام مخفر آخر للشرطة. فنزلنا حوالي مائة درجة الى الأسفل، وإستقبلنا عريف بدين ذو شارب متدل وهيئة ساذجة على باب الزنزانة. وبعد أن سجل السجان إسمي في سجل كبير، فتح باب الممر

وأمرني أن أنام على الأرض كبقية السجناء، لكن الشخير والإستنشاق اللذين كانا ينبعثان منه كان كريهاً جداً حتى إنني آثرت البقاء في الممر مسنداً ظهري الى قضبان الباب الحديدية. فتأثر السجان بحالتي وجلستي المهذبة بالنسبة للمكان، وإقترح عليّ أن أشرب فنجاناً من الشاي معه. فقبلت بسرور ووجدت نفسي جالساً على سريره. وحينما كان يشرب، علمت أنه من أصل فلسطيني وأن معظم موظفي الدولة الأردنية، كانوا فلسطينيين حصلوا على الجنسية الأردنية، وإعترف لي بصراحة أن الفلسطينيين لم يكونوا يحبون الملك حسين ولا عائلته وأن اليوم الذي يتخلصون فيه منهم ليس ببعيد. وحدثني عن أفراد أسرته الكثيرين وإن راتبه لايكفي لتأمين طعامهم، وكان يقوم بأعمال أخرى خلال قسم من النهار. وبما أنه لم يكن يتوقف عن الشكوى من ظروفه المادية، فقد أعطيته ليرات لبنانية تعادل دينارين أردنيين، هذا المبلغ بدا له خيالياً فعرض عليّ فوراً أن أتمدد على سريره وأنام حتى الفجر، فقلت له:

– وأنت؟ ألا تنام؟

– آه، في الليل، لقد إعتدت على البقاء يقظاً، وإذا غلبني النعاس أستطيع أن أنام مستنداً. الى الطاولة.

وهكذا فقد أمضيت قسماً من ليلي نائماً على سرير العريف، وقبيل الفجر أيقظني فجأة وقال لي:

– ربما يأتي الآن مسؤولي، من الأفضل أن تحاول النوم على هذا السرير في الممر. وبعد قليل رن جرس الهاتف. كان عليّ أن أستعد للعودة الى بيروت. وبعد ساعتين حطت بي الطائرة النفاثة في مطار (خالده) وبعد نصف ساعة فقط وجدت نفسي أمام المفوض (نويري) فصاح بي قائلاً:

– إذاً، لقد رجعت.

– كنت قد أخبرتك أن الأردن لن تستقبلني بحفاوة. من الآن فصاعداً لاترسلني الى بلد عربي، بل أمهلني ثمان وأربعين ساعة لكي أحصل على تأشيرة دخول الى دولة أوروپية غربية.

فقال المفوض:

– لدينا الكثير لنهتم به بدلاً من الإهتمام بك دوماً. لقد قررنا إعادتك الى سورية وعليك أن تدبر نفسك مع سلطاتك.

– أتجرؤ على فعل ذلك؟

– نعم هذا أفضل لنا ولك.

– وإذا رفضت؟

– لا أنصحك بذلك لأنك ستندم على ذلك، لقد عزمنا على إستخدام جميع الوسائل اللازمة لنقلك الى سورية وتقييدك بهذا العمل! فمن مصلحتك أن تطيعنا.

إن المأساة التي وجدت نفسي أمامها كانت مرعبة، ففي لبنان، لم يكن أصدقائي في الخارج يستطيعون أن يفعلوا أي شيء لإخراجي من هذا الجحيم. وقد يؤدي التدخل لدى الشخصيات البارزة دون شك الى إنقاذي لأن إعتقالي من قبل الأمن اللبناني لايستند على أساس شرعي... لم يتحرك أحد فلا جنبلاط ولا الجميّل اللذان يستطيعان أن يطلقا سراحي، لم يتدخلا في أمر مغامرتي. وبعد تفكير طويل عزمت على تسليم نفسي دون مقاومة الى سورية.

أسرع (نويري) في توضيح الإجراءات وبعد ذلك قادني رجال الشرطة الى الدرك، في القسم الغربي من المدينة. وبعيد الظهر نُقلت الى قسم درك الأشرفية المكلف بمبادلة المجرمين بين البلدين. فأمضيت فيه ليلة مرعبة دون غطاء وأنا أرتعش برداً حتى الصباح على أرضية إسمنتية. وفي الصباح، أراد عريف متحمس أن يرغمني على تنفيذ أعمال التنظيف، ولكن حينما سمعني أحتج باللغة الفرنسية، إنتفض، فقد كان يفتخر بالأدب الفرنسي، وإختلس العريف مني (٥) ليرات لبنانية لقاء الإتصال هاتفياً بأحد أصدقائنا الذي كان يعرف (بيير الجميّل)، هذا الوعد الذي لم يُعرف أبداً.

في الثالث والعشرين من نيسان، كنت على طريق سورية والقيود في يدي، في سيارة (لاندروڤر) محاطاً بثلاثة من رجال الدرك اللبنانيين، بعد أن مررت بها سراً قبل ثلاثة أعوام. لقد كان النهار آنذاك جميلاً، فالسماء زرقاء صافية، وشمس الربيع كانت تشرق على الجبال وكأنها تغطيها بحرير موصلي شفاف. وكانت أشجار اللوز والمشمش والدراق المزهرة ترسل أريجاً ساحراً في كل الإتجاهات.

كان هذا المشهد فاتناً جداً وسحرياً حتى إن سنوات طفولتي في كوردستان تركيا، تراءت لي أمام عيني فجأة، فنسيت حينئذ قيودي ورجال الدرك وكذلك جهتي. وحينما توقفت سيارتنا فجأة أمام الشرطة العسكرية السورية في (جديدة) لم أكن أصدق ماتراه عيناي وقلت في نفسي:

– لا، مستحيل أن أكون مرة ثانية بين أيديهم!

8

سورية

- سبعة أشهر في زنزانة منفردة في سجن الشيخ حسن بدمشق
- الحياة اليومية مع ألوان التعذيب بين سجناء "الإخوان المسلمين" والبعثيين والآخرين
- النفي الى جبل الدروز
- تحت الإقامة الجبرية في دمشق

لقد كانت الحقيقة هناك. فعن طريق إتصال هاتفي كلفت السلطات السورية عريفاً وثلاثة جنود للإلتزام بي فسارعوا بإتجاه العاصمة دون إضاعة الوقت. ولم يجد العريف ضرورة لتقييدي بالسلاسل رغم إلحاح مرؤوسيه:

- الى أين سيذهب في هذه الجبال؟

هدّأ تصرفه من روعي. وكنت أعلم أنه في ٢٣ شباط ١٩٦٦، حدث إنقلاب جديد في سورية. وكانت الإدارة الإقليمية لحزب البعث برئاسة (صلاح حديد) قد ألغت الإدارة الوطنية برئاسة (أمين الحافظ) رئيس الدولة السورية. وكان الجهاز الجديد ميالاً الى اليسار والإشتراكية. "فهل كان التصرف الإنساني من العريف تجاهي نتيجة منطقية لذلك؟ "لقد كانت أوهامي هذه لفترة قصيرة. ففي دمشق نُقلت من مكتب لآخر قبل أن أجد نفسي في مكتب حي الشيخ محي الدين حيث توجب علي الإنتظار ساعات. وفي الساعة الواحدة من بعد الظهر، أنزلني شرطيان مدنيان الى القبو وأودعاني في غرفة، مفروشة بسرير ومجموعة من الصناديق المقفلة، ذات نوافذ منقطة ومغلقة. ومكثت فيها ثلاثة أيام. وفي صبيحة اليوم الثالث، نقلت الى جهة مجهولة. كان قلبي يخفق ويضطرب تأثراً بفكرة ذهابي الى سجن المزة من جديد. وحينما وصلنا الى مركز المدينة وبدلاً من أن تتحول سيارتنا الى اليمين مالت الى اليسار فقلت في نفسي "أهذا هو السجن المركزي؟" لا لم يكن ذلك السجن، فأمام سوق الحميدية، مالت سيارة الجيب الى اليمين بإتجاه حي الميدان، وهو أحد أقدم الأحياء في دمشق. وبعد فترة توقفت السيارة أمام مبنى ذي جدران سميكة وبوابة كُتبت أعلاها العبارة التالية "مخفر شرطة شيخ حسن".

"هل سأُسجن فيه في زنزانة منفردة كما إعتاد عليه مخفر الشيخ حسن؟ هل سأتمكن من تحمل هذا الإعتقال؟"

كانت هذه التساؤلات تتبادر الى ذهني وتزعجني. وبعد بضع درجات من النزول الى الدرج الحلزوني، وجدنا أنفسنا أمام باب معدني مقفل من الداخل. طرقه أحد رجال الشرطة الذين كانوا يرافقونني بقبضات يديه بعنف إهتز له البناء كله، فإنبعث صوت من الأعلى يقول:

- نعم!

ثم إنبعثت قعقعة المفاتيح في صخب ورن صوت خطوات على الدرج. وحينما فُتح الباب الخارجي، رأيت أمامي شاباً طويل القامة يرتدي قميصاً نصف كم، أسمر اللون ذا شارب متدل، يتدلى على وركه الأيمن مسدس.

فقال لرفاقه مبتسماً:

- زبون جديد. وصل في أوانه لأننا بدأنا نسأم مع السجينين اللذين تبقيا لدينا.

وأودعني السجان ذو الشارب المتدلي بجفاء في إحدى زنزانات السجن التي كان إرتفاعها متران وطولها متر وثمانون سنتيمتراً وعرضها متر ونصف. وكان على طول الجدار من اليسار، حافة أرضية مطروقة ومغطاة بالأسمنت تستعمل كسرير. وكان في آخر القسم السفلي حفرة وصنبور شُد بلولب على خرطوم ماء، وكان ذلك عبارة عن مراحيض.

وكانت هناك نافذة صغيرة ذات قضبان حديدية تطل على الباحة، وحينما يقف المرء على أطراف أصابع قدميه، يرى المقبرة الواسعة المحيطة بالسجن من ثلاث جهات، هذه المقبرة التي كانت أصوات النحيب فيها ترافقني طيلة إقامتي في سجن شيخ حسن.

كان القسم العلوي من الباب يحتوي على كوة كان إغلاقها وفكها تابعاً لإدارة المباحث. أما كوتي فقد ظلت مغلقة شهراً كاملاً حيث عشت في عزلة تامة. ولم أكن أسمع سوى أصوات، ولم أرَ أشخاصاً بإستثناء أوقات الظهر حيث كان رجال الشرطة يفتحون الباب فجأة بشكل نصفي ليسألوني إن كنت أرغب طعاماً. وبما أن الأطباق الساخنة كانت محظورة، فقد كانوا يعرضون عليّ ثلاثة أنواع من السندويج: سندويج الجبنة البيضاء، سندويج بالزبدة، سندويج بالمربى والحلاوة. وكنت أستطيع أيضاً أن أطلب الفواكه. وبعد ساعة من التوصية على الشراء، يعود رجال الشرطة ويضعون الأطباق أمامي مع الفواكه، ويطلبون مني دفع قيمتها ويغلقون الباب بسرعة.

كان هذا الإحتجاز ثقيلاً عليّ، حتى إني في المساء الثالث حاولت أن أنتحر بشج معصمي. لذا، نهضت على الفور وإقتلعت مسامير أحد أطراف إطار النافذة وحاولت أن أكسر قطعة من الزجاج. لقد بلغت هدفي ولكنه تجاوز بشدة الحدود التي وضعتها، فخرج كل الزجاج من الإطار وإنزلق على طول الجدار مما أدى الى ضوضاء مرعبة. فأسرع سجان المركز وسألني بهلع:

- ما الأمر؟

– آه، لاشيء سقط الزجاج.

– لا يمكن للزجاج أن يسقط من تلقاء نفسه، لقد لمسته.

– لقد سقط حينما كنت أفتح النافذة.

فأجاب بإنزعاج:

– لا تروي لي قصصاً كاذبة. قل بأنك تنوي نوايا شيطانية. لايمكنك أن تخفي ذلك. فقد إعتدت على كل الأمور. ومنذ فترة طويلة أنقذنا سجينا في اللحظة الأخيرة إستطاع أن يقطع عروقه بنفس الطريقة التي تتبعها الآن. فلا تلجأ الى تلك اللعبة وإلا سنضطر الى تقييدك بالسلاسل. غادر زنزانتك وتعال إجلس قرب مكتبنا. دع أغطيتك فيها. سأعطيك غيرها وبقدر ماتريد. وحينما عدت الى هذه الزنزانة الجديدة رأيت السجينين الآخرين. كان أحدهما مسناً وجالساً ورجلاه على غطاء ممدد على أرض الرواق أمام حجرته. وكان قد مُنح هذا الإمتياز نظراً لسنه الكبير. أما السجين الآخر فقد كان منتصباً خلف كوته المفتوحة، فعرفت أنه العميل السابق للمباحث في عهد (ناصر). كان ينشر حينئذ الرعب بين مناهضي النظام. وكان قد أتُهم لأنه عذّب عدة سجناء حتى الموت. فهل كان جهاز السلطة يطلب منه حسابات عن جرائمه السابقة أو هل كان يريد أن يرغمه على الخضوع جسماً وروحاً لإرادته؟ لم أعرف شيئاً من ذلك. وبعد بضعة أيام أطلق سراحه.

في ذلك المساء، وعندما كنت أمر من أمامهما، كان جيراني يشربون الشاي. وبعد قليل من إيداعي في قفصي الجديد، دنا الرجل العجوز وفتح كوتي ومد إليّ كأساً من الشاي وقال بطيبة:

– خذ، إشرب، ستنسيك هذه الكأس. فالأيام الأولى هنا صعبة على السجين وبعد ذلك يعتاد المرء على المكان. إصبر قليلاً وسيكون كل شيء على ما يرام.

بهذه الكلمات أغلق الكوة وعاد ليشرب شايه وهو يسبّح بمسبحته ويروي قصصاً للحارس. لقد هدّأت زيارته وكلامه المشجع من روعي. وبدأت أصغي لحظة الى الرجل الشجاع، وأغوص الى النوم على نغمة صوته الشجي. وفي اليوم التالي والأيام التي تلته، كان يحضر لي كأساً من الشاي بإنتظام. وكان يحادثني بشكل ودي وعندما ذكرت له هويتي، إنفعل كثيراً وتمتم بصوت خافت بأنه كان من الحي الكوردي وأنه يعرفني، ولكن كيف نزل هذا الشيخ ذو النظرة الطيبة جداً في سجن الشيخ حسن؟

فسرد لي قصته، أنه كان يملك منزلاً أجّره لضابط. وكان إبنه على وشك الزواج ويريد أن يسكن فيه بالطبع. وأعطى مهلة ستة أشهر للضابط ليجد له شقة في جهة ما. فمضت هذه المهلة ولم يتحرك الضابط ولم يبد أية نية للخروج. فلجأ الشيخ حينئذ الى العدالة أملاً في الحصول على حقوقه. فقال له الضابِط المستأجر:

- كيف؟ أتجرؤ على ذلك؟ سأريك ما أفعله.

وبعد بضعة أيام جاء رجال المباحث ليلاً وأخرجوه من سريره لنقله الى سجن الشيخ حسن. لقد وقع الحادث منذ خمسة عشر يوماً. وكان يهدد بالبقاء في السجن حتى الموت ما لم يسحب شكواه ويُسقط دعوته. فسألته:

- ماذا تعتقد أن تفعل؟

فقال مبتسماً:

- آه، أعتقد أنني سأتنازل عن الأمر لأنني لاأملك القوة ولا الصحة لتحمل هذا النوع من السجن لفترة طويلة. تباً لولدي، سيتزوج بعد فترة وسنحاول أن نخلي له ولزوجته مكاناً عندنا.

وبعد ثلاثة أيام وبعد أن ودعني، سألني ما إذا كان يستطيع أن يخدمني في المدينة. فأشرت الى أسماء بعض الأصدقاء وتوسلت إليه بالذهاب إليهم ورؤيتهم شخصياً وإخبارهم بوضعي، وحثهم على القيام بإجراءات لإخراجي من السجن. فأقسم أن يفعل كل الخير وترك لي مسبحته الطويلة كذكرى. وبعد فترة، وصل سجناء آخرون وهم أعضاء في تنظيم "الإخوان المسلمين" وأقتيدوا الى حجرة التعذيب، حيث إنتزعت منهم أسماؤهم ووعدوا بعدم الإنخراط في السياسة قبل إطلاق سراحهم. وسمعت نحيبهم وتوسلاتهم.

وذات صباح ، ولازلت في سجن شيخ حسن منذ عشرة أيام، فُتح باب زنزانتي بقوة ودخل عليّ رجل في الثلاثين من عمره ويبدو عليه أنه متكبر فسأل واثقاً من نفسه:

- أتعرفني؟

فقلت بطيبة قلب:

- لا.

- ألم تسمع شيئاً عن الملازم الأول (محمد رمضان)؟

- لا.

- لقد كنت وكيل والي عامودا. ألا يعني ذلك لك شيئاً؟

- لا، أبداً. لسبب بسيط هو إنني كنت في لبنان في السنوات الأخيرة.

في الحقيقة لم أكن أجهل الأعمال الوحشية التي إرتكبها هذا الوكيل السابق حتى إن الكورد إعتادوا على تسميته (جلاد عامودا). لقد كان مناهضاً عنيفاً للكورد، وقد عُيّن هناك بهدف إستئصال شأفة أكبر عدد ممكن من الكورد.

ذات يوم، وأثناء عرض فيلم دعائي عن الجزائر في إحدى دور السينما في عامودا، شب فجأة حريق عمّ الصالة كلها، وحينما شعر المتفرجون الصغار بأنهم قد إستسلموا لمصيرهم

المحتوم، هرعوا الى أبواب النجاة التي كانت مقفلة بإحكام من الخارج، فأصيبوا بالذعر وشرعوا يهرعون بصورة عشوائية بحثاً عن منافذ أخرى. وهكذا فقد هلك من بينهم (٤٠) شخصاً تفحموا تماماً، وبعد ذلك وصلت النجدة. خلال هذا الوقت كان وكيل الوالي جالساً في مكتبه يحتسي القهوة بهدوء. وبالرغم من الإستياء العام، فقد ظل هذا الوكيل فترة طويلة في منصبه وإستمر في إرهاب الأهالي لاسيما الأطفال المراهقين. فهو الذي أوقف حوالي (٢٠) طالباً تتراوح أعمارهم بين (١٢- ١٥) عاماً وهددهم بإغتصابهم إن لم يعترفوا بأنني تلقيت السلاح من (البارزاني) "لطرد العرب من المناطق الكوردية". وذلك بحجة أن طلاب الثانوية هتفوا بحياة البارزاني، حتى أن العديد من الأطفال وتحت تأثير الرعب إعترفوا بذلك وضربوا بالفلقة. وأصيب آخرون برضوض مما أدى بهم الى المعالجة الطبية. ولقد تجرأ الآباء على رفع أصواتهم ضد هذه الإجراءات ذات الوحشية الجديدة. لكنهم جُلدوا بالسياط أمام الناس ثم نُقلوا الى سجن المزة.

وتحاشياً لأية مظاهرة جماهيرية، أحاط وكيل الوالي مدينة عامودا بالدبابات، حتى أنه صعد بنفسه على دبابة إقتحام وإعتاد على التجول متحدياً إرادة السكان بالخروج والمبارزة له.

وبعد إنقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦، إرتقى الى منصب المحقق في إدارة المباحث. هذا هو الإنسان المشؤوم الذي تواجد أمامي ويحتقرني:

- آه، ألا تعرفني؟ أعلم أنني كنت أهز جميع كورد الجزيرة بدبابة واحدة، دبابة واحدة، أتفهم؟ دبابة واحدة كفتني لأدوس وأبيد وأسحق كورد سورية، أتسمعني؟ أبيدكم!

فقلت له:

- لديك أسلحة كافية لكي تفعل ذلك، ولكن هل تعتبر ذلك فخراً ومجداً لدولة لإبادة قسم كبير من رعاياها لأنهم من عرق آخر؟

فصاح قائلاً:

- بالتأكيد، عندما يرفض هؤلاء الرعايا الإنصهار في بوتقة القومية العربية ويبحثون عن ضمان لكيانهم ويدعون أنهم أمة متميزة، مثلما يحاول أن يفعله البارزاني حالياً في العراق، ومثلما تطمحون إليه أنتم يا كورد سورية. وأضاف مزبداً من العنف:

- من جهة أخرى لدينا أدلة بأنك ذهبت لرؤية البارزاني شخصياً وأنك عدت من عنده بتوجيهات محددة لربط شمال سورية بالدولة الكوردية التي تطمح بتأسيسها في العراق.

فأجبته:

- إن ما تؤكده ليس إلا خيالاً، لسبب بسيط وهو أن البارزاني لاينوي أبداً الإنفصال عن

العراق وإنني لم يحصل لي الشرف أبداً بلقائه. وتستطيع السلطات اللبنانية أن تثبت لك بأنني لم أغادر لبنان قط منذ رحيلي من سورية.

- سنرى ذلك فيما بعد وبإنتظار ذلك أكتب تقريراً عن كل ما قمت به خلال إقامتك في لبنان وأريده غداً.

بهذه الكلمات إنصرف فجأة مثلما جاء.

وبدأت أكتب تقريري على الفور. فذكرت في البداية الأخوة الكوردية- العربية التاريخية والدعم الذي قدمه الكورد للعرب في أحرج عصور التاريخ، وكذلك زمن الحملات الصليبية وعهد الإنتداب الفرنسي. وتحدثت عن حسن الجوار بين كورد وعرب سورية حتى وصول قوات الفكر البعثي الى السلطة. وإنتقدت أيضاً آيديولوجية حزب البعث وكذّبت مفارقته التاريخية وضلاله السياسي. وكتبت بصراحة عن نشاطي السياسي في لبنان وعبّرت عن إرادتي في النضال لإحترام حقوق الشعب الكوردي الأكثر شرعية من أجل الأخوة الصادقة بين الكورد والعرب. ولكي أنهي تقريري، طلبت إطلاق سراحي دون أي شرط.

وبعد يومين أُخذت بسرعة الى حجرة ذات جدران سميكة من القرميد المشوي، لا نافذة فيها وسيئة الإضاءة. أما وكيل عامودا السابق، فقد كان في مكتب يحيط به العشرات من الجلاوزة (الشرطة في أيديهم عصي طويلة من الأسَل). وإستفهم الملازم الأول قائلاً:

- إذاً، أخبرني أنت! إنك ليس فقط ترفض الكشف لنا عن جميع تصرفاتك السيئة بل بلغت بك الوقاحة لإنتقاد حزبنا والإفتراء علينا. ثم خاطب رجاله قائلاً:

- إطرحوا هذا الوقح أرضاً، وإضربوه الفلقة حتى يوضح لنا لقاءه بالبارزاني ويدحض كتابةً ألفاظه المهينة تجاه حزبنا حزب البعث.

فأمسك بي حينئذ رجلان وطرحاني أرضاً. ورفع ثالث قدمي ولف رابع الفلقة على ساقيّ وشدهما بقوة حتى إنني شعرت بأنهما مقطوعتان. وهجم رجلان آخران على أخمص القدمين وفي الضربة الثالثة إرتخى الجلد ومُزقت العروق وبدأت الدماء تسيل بتدفق. وحينما رأى الملازم الأول ذلك صاح برجاله:

- توقفوا، كفى!، لا نريد أبداً أن نجعله شهيداً. إتصلوا هاتفياً وبسرعة بالإدارة ليرسلوا لنا طبيباً.

وبإنتظار الطبيب وجد أحد جلاديّ قطع قماش ولفها حول قدمي. وبعد بضع دقائق، كانت كلها مخضبة بالدماء، وبما إن الإدارة لم تستطع إيجاد طبيب، فقد وضعت في سيارة (لاندروڤر) ونُقلت الى القسم الجراحي في مشفى المزة العسكري. وحينما إستعدت وعيي وجدت نفسي ممداً على سرير نظيف وأشعر بآلام شديدة في قدمي وكان (قد رُكب لي إبرة سيروم في العناية المشددة). وأمضيت خمسة عشر يوماً في هذه الغرفة قبل العودة الى زنزانة

الشيخ حسن.

وبعد هذا الحادث، أظهر رجال المباحث نوعاً من التسامح تجاهي. فظلت كوتي مفتوحة، وهذا ما سمح لي بمشاهدة الرواق والتحدث الى السجناء الآخرين ولاسيما جاري الأقرب. في ذلك العصر لم تكن الزنزانات تفرغ. فكان الجهاز الجديد في حزب البعث يطارد أعضاء القيادة القومية التي هُزمت حديثاً. وحينما نُقلوا الى مكاتب رجال المباحث أكرهوا على الخضوع وبيان إخلاصهم للنظام الحالي وإدانة النظام السابق ومسؤوليه. وبعد بضعة أيام أُفرج عنهم جميعاً، بينما المناهضون النادرون، وجدوا أنفسهم مشتتين في سجون دمشق وبقية البلاد. والذين ظلوا في سجن الشيخ حسن، كانوا جامعيين ونقابيين ثاروا ضد أسياد سورية الجدد.

والذين أقسموا على المقاومة ضد قسرهم وجدوا أنفسهم مسجونين مدة عشرين يوماً في غرف إنفرادية مثل زنزانتي التي كانت نافذتها مفتوحة منذ اليوم الأول، وكانت السلطات تتصرف بقساوة بالغة مع النقابيين العنيدين في معارضتهم. وفي منتصف الليل حدث أن أوقضوا لنقلهم عبر الصحراء الى سجن تدمر. وكان من بين جيراني في السجن مدرسون ومهندسون ورؤساء نقابات والأمين العام السابق للثقافة الشعبية. فصرخت بهم:

– إذاً الفاشيون مطلقو السجن (أي مسببو أحداث يعجزون عن إيقافها) وها أنتم راضون عن أعمالكم!

فسألوا بذهول:

– الى أي فاشي وأي عمل تشير؟

– إليكم أيها البعثيون والى مسارعتكم في إستخدام الجيش للوصول الى السلطة وفرض إشتراكيتكم القومية على الشعب.

في البداية، كانت كلماتي تزعج وتثير محدثي، ولكن أخيراً بينوا لي السبب شفهياً دون التخلي عن أمل العودة ذات يوم الى السلطة بإنقلاب عسكري آخر.

في هذه الأيام، كان الجميع مقتنعين أن بطلهم المنقذ هو الدرزي (سليم حاطوم) زعيم رجال الكوماندوس (الفدائيين) الذي، بالإتحاد مع الضباط العلويين، كان قد قام بالدور الأساس في إستلام الجنرال (أمين حافظ) رئيس الجمهورية السورية وزعيم القيادة القومية لحزب البعث السلطة.

إن ظروف الإعتقال كانت قاسية جداً في سجن الشيخ حسن، فلم نكن نتلقى الزيارات قط، ولم يكن يحق لنا الخروج الى الإستراحة. ولكي أنشّط ساقي قليلاً، توسلت الى السجان ليسمح لي بكنس وتنظيف الرواق.

وذات يوم إستجاب السجان (فوزي) لإلتماسي. ففتح الباب وأعطاني مكنسة وخرطوم ماء، وحينما رآني السجناء أذهب وأعود بحرية في الممر، وأنا أنفذ مهمتي بسرور، ألحوا عليّ للحصول على تلك المزية. ولكن فوزي الذي كان يخشى إستياء الإدارة، طلب مني العودة الى زنزانتي، ولم يفتحها حتى يوم خروجي النهائي منها. نظراً لشدة القوانين لم يبق السجناء بصورة عامة سوى شهر واحد في سجن الشيخ حسن. أما من جهتي، فقد مكثت فيه قرابة سبعة أشهر. ذات صباح في منتصف شهر أيلول، رن جرس الهاتف فجأة في الممر، وفوزي الذي ناب عن زميله، رفع السماعة وأصغى بهدوء وهو يشير اليّ ثم أقبل نحوي مرتاحاً وهو يضحك:

- نبأ سار، ستخرج، إستعد!

- ولكن ماذا سيفعلون بي؟ هل أخبروك بذلك؟

حسبما فهمت، ستُنقل الى السويداء في جبل الدروز حيث ستعيش فيه تحت المراقبة والإقامة الجبرية.. ولن تكون تلك الحرية تامة ولكن سيكون وضعك هناك أفضل من هنا. وبعد بضع دقائق، نُقلت برفقة شرطيين مدنيين بلا قيود في يدي في شاحنة صغيرة قديمة. وبحلول الظلام وصلنا الى مركز محافظة جبل الدروز. وكانت حجارة المنازل البازلتية السوداء تجعل المكان أكثر سواداً وظلمة. وفي مكتب المباحث صافحني الضابط المسؤول ووقع الأوراق المتعلقة بي وأمرني بالمجيء الى مكتبه كل يوم. لقد كنت حراً أينما أسكن في المدينة، وقادني رفاقي الى أفضل فندق وبعد أن أوصوا المدير بشأني عادوا الى العاصمة.. كان الفندق الكائن في الطابق الأول لبناء من الحجارة السوداء، يقابل سراي الحكومة ويطل على ساحة واسعة، وكان مظهره الخارجي وأثاثه وأسرته توحي بفقر مؤلم وقذارة منفرة.

لقد وجدت صعوبة بالغة في النوم في الليلة الأولى من "الحرية" ولحسن الحظ في اليوم التالي، أمضت شغالة الفندق كل النهار في الغسيل والكوي. وفي المساء حصلت على سرير مريح ونظيف. وفي ذلك الوقت كان إعتبار المرء نفسه محكوماً مدى الحياة في السويداء يعتبر هلاكاً دائماً وعذاباً. في السابق كان الفرنسيون قد نفوا إليها القوميين العرب، فطُردوا منها وحل محلهم الكورد الذين كانوا يعتبرون مزعجين. وقبل شهر أُرغم عشرة من الكورد أُدينوا لأسباب سياسية، على الإقامة إما في فندقي نفسه أو في سجن السويداء. وبعد وصولي بأسبوعين، مُلىء الفندق فجأة بحوالي خمسة عشر معلماً كوردياً من الجزيرة، وبين عشية وضحاها نُقلوا الى محافظة السويداء.

كانت منطقة جبل الدروز تُعرف بهذا الإسم منذ أمد طويل، ولكنها حُولت بعد ثلاثين سنة الى جبل العرب، فسألتهم:

- أما زال هناك معلمون كورد في الجزيرة؟

فأجابوني وكأنهم في جحيم أبدي:

– حسب معرفتنا ليس هناك أي موظف كوردي في الجزيرة، فقد فُصل الجميع أو نُقلوا الى جهة أخرى مثلنا.

لقد كان الدروز ناقمين تماماً، حتى إن منطقتهم كانت تُستخدم من قبل دمشق كمنفى.

– إن السبب الوحيد لجذب مواطني المناطق الأخرى الى المنطقة بنية معاقبتهم، هو وجود الفقر والفاقة الأخلاقية والإدارية والثقافية لمنطقتنا. وأضاف صاحب الفندق وأصدقائه قائلين:

– إننا حانقون وثائرون لأن الحكومة لم تفعل شيئاً لتحسين أوضاعنا.

– صحيح ولكن مثقفيكم وضباطكم كانوا السباقين لدعم نظام البعث مع العلم أنكم لستم من أصل عربي، ففي الإنقلاب الأخير، وجه الدروز مع (سليم حاطوم) الضربة القاضية للنظام السابق.

– صحيح أننا لسنا من أصل عربي، حتى إن مؤرخينا يؤكدون أن بعضنا يمكن أن يكونوا من أصل كوردي. وبالرغم من أننا كنا نسمي الكورد "أبناء عمومتنا" فإننا اليوم تعربنا تعريباً تاماً. فلا نتكلم سوى اللغة العربية وثقافتنا عربية بحتة ويعتبرنا المسلمون طائفة من الإسلام. ومع ذلك في مجال الإيمان، لانستطيع أن نبدي وحدة الشعور مع بقية المسلمين. فنحن نعتقد بتناسخ الأرواح، وإننا واثقون أنه إذا مات أحدنا، فإن روحه ستندمج في روح طفل درزي يولد في نفس اللحظة. ونرى أيضاً أن الله يظهر بأوقات معلومة على شكل إنسان وفي المدارس، وإن كنا نتعلم الفقه الإسلامي دون نفور، فلأننا مرغمون على ذلك. وفي الحقيقة أن الدين الدرزي هو عقيدة ونظام إعتقاد وعبادات مستقل تماماً عما خضع لتأثير الهندوسية والأفلاطونية واليهودية والمسيحية بالإضافة الى العقيدة الإسلامية الراشدة.

ولا يمنع من أن تمارس القومية العربية جاذبية قوية علينا أو بالأحرى على مثقفينا. فإلى جانب قومية البعث الصوفية، فإنه يشدنا أيضاً بوعوده حول العدالة الإجتماعية والرفاهية المادية التي يمكن أن تنعم بها محافظتنا في يوم ما. كان (سليم حاطوم) يعلل نفسه بهذه الأحلام وإذا به يقتحم قصر (أمين الحافظ) الرئيس السابق لسورية. وأضاف درزيون آخرون:

– صدقنا، لم ينم سليم حاطوم وسيصبح عما قريب ذا صيت حسن.

وبعد بضعة أيام راجت إشاعات مختلفة حول التصرفات السيئة عن الإشاعة التي قادها جهاز (جديد- أتاسي)(٨٣)، وأشارت إذاعة إسرائيل والأردن اللتان أخذتا عن تنقلات (حاطوم) الى أنه موجود في منطقة حوران وستصبح السويداء عما قريب في قلب الأحداث. وبعد يومين من هذه المحادثة مع الدروز، كنت شاهداً لبلبلة غريبة. فقد جمع الجنود الأسلحة المضادة للطائرات في الساحة الكبرى للمدينة. وشيئاً فشيئاً، أغلقت المخازن أبوابها وخلت الشوارع من المدنيين وإختفى جلاوزة المباحث المكلفين بالتجسس عليّ، كما إختفى صاحب

الفندق. ولم يبق في الفندق سواي وتاجر عجوز من دمشق جاء ليعرض أحذية على تجار الجملة في السويداء، وحينما سألته ما إذا كان موجوداً أثناء نشاطات (حاطوم)، لم يجرؤ حتى على النظر إليّ، وإرتعد كورقة حينما رآى (DCA) وهرع الى غرفته ليختبيء فيها وهو يترنم:

- يا إلهي أرشدني الى طريق الصواب وسلمني من بين أهلي!

وحاولت أن أعرف عن ذلك الكثير بإستماعي الى المذياع ولكن تلك الليلة لم تُشر أية إذاعة الى الأحداث التي كانت تُدبّر في السويداء. وعند الفجر، ظهر صاحب الفندق لوقت قصير ووشوش في أذني بعد أن أدار لسانه أكثر من سبع مرات في فمه:

- سليم حاطوم هنا، كان جميع موقع السويداء قد إنضم إليه، وإستطاع أن يأسر (صلاح جديد ونورالدين أتاسي) ويجعلهما رهينتين، هذان الزعيمان اللذان قدما للمناقشة مع فرع البعث في جبل الدروز ومنذ أمس، وهو يتحادث مع دمشق فإن لم تقبل شروطه، فإنه أقسم بالزحف على العاصمة، وأضاف دون أن يكتم فرحه:

- إن الكثير من فيالق الجيش قد أقسموا على السير معه. لقد كنا نعتقد إن إنتصار الدروز على العلويين وشيك الوقوع.

ومضت الفترة الصباحية وقسم كبير من الفترة المسائية دون أن يتحرك الجنود المتمركزون أمام الفندق للدفاع الجوي، وحوالي الساعة الرابعة عصراً، بدأت أربع طائرات (ميگ-٢١) قادمة من دمشق تحلق على إرتفاع منخفض على المدينة، فظلت الأسلحة المضادة للطائرات صامتة بصورة غريبة. وبعد نصف ساعة من التحذير الصادر عن العاصمة، فرّ جنود الساحة العامة ووصلوا الى ثكنتهم، وفي السهرة، أخبرتنا إذاعة عمان أن (سليم حاطوم)[٨٤] قد لجأ الى الأردن بصحبة بضع مئات من رجاله. أما إذاعة دمشق، فقد أعلنت إنتصارها على "عصابة من الخونة ومرتشي الإمپريالية وعملائها".

وفي دمشق وبعد يومين من ذلك، باشر العلويون بتطهير كبير في الجيش والإدارة والضباط الذين كانوا قد تعاونوا مع (سليم حاطوم) أو تعاطفوا معه، إعتُقلوا وإختفى عملاء المباحث الذين كانوا يراقبونني يومياً، وكان الضابط المسؤول في مكتب المباحث الذي كان عليّ الحضور إليه كل صباح، غائباً أيضاً، أما الشرطي الوحيد الذي بقي هناك، إكتفى بأن يقول لي:

- شكراً لقدومك، لقد رأيتك، عد الى فندقك. بينما كان علي الحضور أمام الضابط شخصياً فيما مضى.

في دمشق لكي يلعب (حافظ الأسد) الذي كان حينئذ وزير الدفاع ورئيس الطيران، الدور الرئيسي في خنق مؤامرة (حاطوم)، فقد بسط نفوذه وعزز مركزه في الحزب الحاكم.

لقد كان فصل الشتاء أثناء منفاي في جبل الدروز قاسياً جداً. وتساقطت الثلوج مرات

عديدة، وذات ليلة بلغت سماكتها حوالي نصف متر. وفي الغداة، إستمرت العواصف الثلجية. وبما أن مصلحة الطرقات لم تكن تجهز أية وسيلة آلية لتنظيف الشوارع، فإن الناس ظلوا محبوسين في منازلهم. وبالرغم من هذه الظروف الإستثنائية، طلب المباحث هاتفياً أن أذهب الى مكتبهم، هذه الجولة إستغرقت أكثر من ساعة. وبمساعدة رجال المباحث، أرسلت عدة رسائل الى وزير الداخلية لأطالبه بإنهاء نفيي وتسليمي جواز سفر، ولكن عبثاً. فقد كان قد حُكم عليَّ أن أرتعش برداً طوال الشتاء في السويداء وأكتب رسائل جديدة. والغريب أن الرسالة الأخيرة المُرسلة بواسطة محافظ السويداء، كانت أكثر فعالية من الرسائل الأخرى. ففي نهاية نيسان عام ١٩٦٧، نُقلت الى دمشق تحت الإقامة الجبرية والمراقبة على أن أتعهد بتحديد مكان إقامتي للسلطات المختصة. لقد كان ذلك الفصل الميت، فقد وجدت بسرعة غرفة في فندق يديره فلسطينيون وقد أبدى هؤلاء الفلسطينيون فرحاً كبيراً لدى إستقبالي. ولكن ما إن مضى أسبوع على وصولي حتى أظهروا موقفاً عدائياً وتهجمياً تجاهي.

ونظراً لوجودي، فإن رجال الشرطة كانوا يحرسون البناء حراسة مشددة وأمروا صاحب الفندق بأن يعطيهم أسماء كافة زواري. وقلما كانت مهمة المراقبة هذه تدهشني. وأخيراً عثر لي أصدقائي على شقة صغيرة واقعة على مقربة من الحي الكوردي.. وكانت بساتين دمشق الشهيرة تمتد على مساحة واسعة وتُروى بروافد نهر بردى وذلك على بعد بضعة مئات من الأمتار أسفل البناء. وأثناء أشهر الصيف المشمسة والطويلة، كانت رؤية هذه المساحة الواسعة من الخضار تمدني بإحساس البرود والطمأنينة. فبإستثناء سحر مناظرها، كانت هناك أسباب أخرى تربطني بدمشق. كنت أود أن أتابع فيها النضال ضد الفاشية العربية التي كانت تهدد كيان ووجود الشعب الكوردي في سورية. فكيف سأتمكن من القيام بمعركة كهذه في بلد محروم من الحرية ويسيطر عليها جيش قوي لازال يتزعم الوحدة العربية الهاذية؟ كنت مرغماً على العيش تحت المراقبة الدائمة واليقظة من الشرطة أو العودة ثانية للتعفن في زنزانات المباحث. إن عدم جدوى هذه الحياة اللامعقولة، هذه الحياة التي بلا آفاق ولا خلاص منها، حتّم علي أكثر فأكثر البحث عن وسيلة لمغادرة سورية بالرغم من إنني لا أحمل جواز سفر، ولكن للذهاب الى أين؟ الى لبنان "البلد الديمقراطي"؟ أم الى الأردن؟ أو الذهاب الى العراق والإنضمام للقسم المحرر من كوردستان؟ لقد كان ذلك غير معقول لأن المعارك قد نشبت بعد بضعة أشهر من الهدوء. وكانت الشوارع تحت مراقبة الجيش العراقي، وكانت هناك دولة أخرى تشاطر حدودها المشتركة مع سورية ألا وهي تركيا، بلد ولادتي وطفولتي... ألم تكن الفكرة الوحيدة لذهابي إليها سالماً، جنوناً حقيقياً؟

فأجابني إبن عمي الذي جاء خصيصاً من تركيا ليراني والذي إلتقيت به سراً:

- لاشيء أبداً من ذلك، إن تركيا اليوم ليست تركيا منذ عشرة أعوام. فمنذ عام ١٩٦٣ هدأ نظامنا هدوءً تاماً، وحتى الآن يُدلَّل المواطن ويتمتع بكل الحريات الديمقراطية مثل: حرية

الكلام، حرية التجمع والإجتماع، والتنقل ...الخ. ففي أربع وعشرين ساعة، يستطيع الحصول على جواز سفر إذا ما رغب بالسفر. فإذا عزمت على المجيء الى تركيا، أستطيع أن أزودك بجميع الوثائق اللازمة. لقد علمت كل شيء عن موضوعك، فلم تُجرد بعد من الجنسية التركية، أعطني فقط صورة وخلال شهر سأعود الى هنا ببطاقة شخصية نظامية. وسأتعهد أيضاً بإجتيازك الحدود ونقلك الى أي مكان توده في تركيا.

– نعم ولكن في تركيا، هل تعتقد بأنهم سيدعونني بحرية وسلام؟

– سيهتم بك أعضاء آخرون من عائلتك(٨٥)، أما من جهتي فإنني أتعهد إذا ما تعرضت لمتاعب، أن أحصل لك على جواز سفر تركي يسمح لك بمغادرة تركيا بحرية والذهاب الى أي مكان تشاء.

فقلت له وأنا أصيح فرحاً:

– إن كان الأمر هكذا، تصرف بسرعة قبل أن أسقط ثانية في أحد السجون السورية.

9

تركيا

- الهروب الى تركيا سيراً على الأقدام وعبر حقول الألغام
- كوردستان تركيا بعد ثلاثين عاماً واللقاء مع العائلة
- إستانبول في سرية شبه تامة
- فقدان الجنسية التركية
- لاهروب الى أوروپا
- اللجوء السياسي الى سويسرا ثم المواطنة السويسرية

كان ربيع عام ١٩٦٧ مشحوناً للغاية في منطقة الشرق الأوسط. وقد بلغ التوتر بين إسرائيل والدول العربية المجاورة ذروته. وبعد أن ساهم النظام السوري في إعادة تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، أعلن عن عزمه على إبادة إسرائيل عن طريق الحرب الشعبية. أما جمال عبدالناصر الذي كان في أوج قوته العسكرية، فقد كان ينوي "إلقاء اليهود في البحر". وفي مواجهة هذه التهديدات، عززت إسرائيل قوتها العسكرية وضاعفت من عمليات إنتقامها ضد عمليات التخريب التي كان يقوم بها الفدائيون الفلسطينيون في إسرائيل. وخاطرت الطائرات الحاملة لنجمة داوود بنفسها فوق سماء دمشق لمطاردة طائرات الميگ السورية. وقصفت النقاط الإستراتيجية الموجودة في أطراف العاصمة السورية.

أما بالنسبة للإذاعة والتلفزيون والصحافة السورية التي كانت بيد العسكريين، فقد كانت تهاجم الإمپريالية وأعوانها الصهاينة وهي تدعو الى الإنتقام والى "تدمير محتلي الأرض العربية"، وتقطع برامجها للأناشيد العسكرية والنداءات الى الحرب الشعبية. وفي ٥ حزيران ١٩٦٧، حينما شعرت إسرائيل بأنها مهددة بإغلاق مضيق (تيران) وإنسحاب قوات الأمم المتحدة، إنطلقت الى الهجوم. ولقد فوجيء الجيش السوري بالهجوم الإسرائيلي السريع والمفاجيء، وتخلى عن السلاح والعتاد والثياب والأحذية. وسار على طريق دمشق بينما كانت السلطات السورية، التي تخشى دخول القوات الإسرائيلية الى دمشق، قد لجأت الى حمص بعد أن نقلت ذخيرة الدولة الى حلب. وفي ٦ حزيران قررت الحكومة توزيع السلاح على الشعب للدفاع عن العاصمة. وكان الناس يتدافعون زرافات الى مراكز التوزيع. وبعد أن سُلّمت كمية قليلة من البنادق الى المتطوعين، خشيت السلطات دون شك من أن يصوب

الشعب سلاحه ضدها، فطلبت إسترجاعها.

وبعد يومين وبتدخل الإتحاد السوفيتي لدى الأمريكيين، تخلت إسرائيل عن مشروعها بإحتلال حوران وجبل الدروز والإستيلاء على دمشق. وفي ١٥ حزيران عادت الحكومة السورية الى دمشق وأسرعت بإخراج البلاد من النكبة. لقد كانت لرجال المباحث هموم اخرى تشغلهم.. ولم أكن ملزماً بالمضي الى مكتبهم. لقد سهل هذا الفتور إتصالاتي مع عائلتي في تركيا(٨٦). ففي ٢ آب، عاد إبن عمي من تركيا الى دمشق وهو يحمل لي بطاقة شخصية نظامية، تحتوي أيضاً على وثيقة إعفاء من الخدمة الإلزامية. كما كان قد وضع خطة لعبوري الى تركيا سراً. كان يجب أن نتصرف بسرعة لأن الإدارة السورية كانت لا تزال تعيش في إضطراب وفوضى. في ٤ آب أعلن سائق سيارة أرمني عن إستعداده لإيصالنا الى قامشلي. وبعد الظهر غادرنا دمشق سراً بإتجاه حلب. وحين وصلنا إليها في الساعة الثامنة مساءً، إحتج السائق فجأة بأنه مرهق تماماً. ورفض متابعة السير بالرغم من رجائي وتوسلي بزيادة الأجرة. فجاء سائق أرمني آخر ليحل محل زميله وأجلسنا في سيارته. لقد مضت ليلة ٦-٧ آب من رحلتنا من حلب الى قامشلي بمسافة (٧٠٠) كيلومتر دون حادث. وعند طلوع الشمس قرعت باب منزل صديقي المحامي، فإرتمى على عنقي قبل أن يقودني الى فناء داره الواسع كما جرت العادة آنذاك، كانت جميع العائلة تنام على أسرة خشبية مرتفعة مغطاة بالناموسيات. وأطلعته على الفور على مشروعي بمغادرة سورية والذهاب الى كوردستان تركيا، هذه الفكرة أدهشته، فقد كان أيضاً من كوردستان تركيا. وخلال أكثر من إثني عشر عاماً، كانت أسرته قد حاربت فيها جيوش أتاتورك. فأعاد القول مرات عديدة:

-هل فكرت في الأمر جيداً؟

– نعم، لن تمنحني سورية إلا حياة الكسل والخمول والموت البطيء في السجون ولن أستطيع فيها قط أن أفيد شعبي.

– في تركيا، هل تعتقد حقيقة بأنك ستستفيد من السلام والحرية وتنجو بنفسك؟

– هناك إبن عم لي أتمنى أن يحقق ذلك، إنه جدير بالقيام بذلك. أما الآن فالمهم هو عبور الحدود. فهل تعرف أحداً ذا ثقة من بين المهربين الكورد؟ لا تقلق لهذا الأمر. لأن "عليكي الأمير" سيتولى أمرك. لقد إستطاع أن يمارس سلطته المطلقة على رجال الگمارك السورية والتركية في آن واحد، وكذلك على رجال طرفي الحدود، فهو يعرف الممرات عبر حقول الألغام التي زرعها الأتراك على طول الحدود. وأنا واثق إنه سيعينك على الإجتياز الى الجهة الأخرى وأنه سيأخذ جميع الإحتياطات اللازمة. وسأذهب لأعرض عليه هذا الأمر. فإرتدى صديقي ثيابه وخرج فوراً. وعاد بعد ساعة بصحبة شاب ضخم.

فقال الشاب:

- أنا في خدمتك ياسيد، أخبرني فقط متى ومن أين تريد العبور.

لقد كان إبن عمي من تركيا قد وضع خطته مسبقاً.... وفي وقت متأخر من بعد ظهر ٨ آب، نقلني (عليك) الى قرية كوردية تدعى (گرديم). وحينما إقتربنا من هذه القرية، توقفت سيارته تحت أحد جسور الخط الحديدي لإستانبول - بغداد الذي كان يشكل الحدود بين تركيا وسورية. وفي هذا المكان، خرج رجال عليكي خفية وإهتموا بحقيبتي المليئتين بالثياب والكتب وبعض الوثائق والهدايا لأفراد أسرتي الكثيرين، وخلال هذا الوقت سار (عليكي الأمير) حتى الأسلاك الشائكة التي وضعتها السلطات التركية على طول الحدود لأننا كنا على حافة منطقة ملغومة. أما حراس الحدود الذين كان من رفاقهم فقد رشوهم مسبقاً، فقد حيوني بفرح وباللغة التركية وهم يرفعون الأسلاك الشائكة ليفتحوا لنا الطريق. وإستطاع (عليكي) أن يقنعهم بأنني كنت تاجراً تركياً ثرياً وكنت أعبر من هنا لخدمتهم في أغلب الأحيان. وحينما خرجنا من حقل الألغام، كان الليل قد أسدل خيوطه وسبقني أحد الأدلاء ليقودني بسرعة الى القرية، فيما حمل الثلاثة الآخرون أمتعتي، وفي قرية (گره سور)، طار إبن عمي الذي سبقني بإجتياز الحدود شرعياً الى (نصيبين)، فرحاً ولكنه قلق لغياب أمتعتي.

- إن الوقت يمضي بسرعة لأنني أجرت سيارة ستنقلنا هذه الليلة الى دياربكر....

فما أن أنهى كلامه حتى سمعت أصوات طلقات آتية من المكان الذي عبرناه وجعلتنا ننتفض خوفاً فتمتمت قائلاً:

- إنهم حمالونا.

فقال إبن عمي وهو يطمئنني:

- ربما تكون هناك مناوشة. لا أعتقد أن يكون الحمالون مسلحين ويقومون بهجوم مضاد بهذا الشكل. ربما يكون إشتباك بين المهربين المسلحين ومفارز الجيش.

فقلت:

-إذاً وحمالونا؟ ماذا سيجري لهم هناك؟ وإذا سقطت حقائبي في أيدي السلطات التركية مع الصور والمستندات التي تحتويها، فلن يبقى لي سوى العودة الى سورية. من جهة أخرى، أعتقد إنه من الأفضل مغادرة القرية لكي أتحرز في جهة آمنة من الريف.

- ليست مشكلة، ولا تنسى إنني مسؤول عن أمنك وسلامتك. وأضمن لك بأن أي شخص لن يأتي لتفتيش القرية.

وبينما كنا نتبادل هذه الكلمات، سمعت صوت خطوات ثقيلة تدنو منا... وبعد قليل عرفنا حمالينا وهم يضعون أمتعتي على الأرض.

- نحن سالمون ولم نصب بأذى وأمتعتك سليمة تماماً. لقد تبودلت الأعيرة النارية بين مفرزة درك الحدود يقودها ضابط وبين المهربين الذين كانوا على وشك إدخال عدد كبير من المواشي الى سورية. وحسبما علمنا أن معظم الماشية أصبحت في الطرف الآخر من الحدود وأن المهربين إستخدموا أسلحتهم لمنع الجنود من الإستيلاء على بقية الماشية. إن الأعيرة النارية كانت ترعب نساء القرية التي كان الأخ والزوج والأب وإبن العم من بين هؤلاء المهربين الذين كانوا قد إنضموا الى هذه التجارة الخطيرة.

فقالت إحدى النساء باكية:

- أشقائي المساكين، كم توسلنا إليكم بعدم اللعب مع الموت!

فيجيبها أحد الرجال:

- أين تريدين أن نجد عملاً ياأختاه؟ هل سنجده في معامل النسيج أو في مصنع الكيمياء أو صناعة الحديد أو الكونسروة أو الإسمنت؟ لاتنوي أنقرة أبداً أن تبني مثل تلك المصانع في مناطقنا. لقد ذهب عشرات الألوف من إخوتنا للعمل على بعد آلاف الكيلومترات من هنا، حيث يقومون بأعمال وضيعة وقاسية جداً. إذاً ماذا تريدين أن نفعل يا أختي الصغيرة؟ أليس من الأفضل أن نعمل في التهريب بدلاً من أن نموت جوعاً وحرماناً؟

- إن ماتقوله صحيح يا أخي، ولكننا أُصبنا بالإعياء والإرهاق لأننا نعيش بإستمرار على أعصابنا، إننا لا نستطيع أن نشاهد كل ثلاثة أيام جثة طفل لنا منتفخة في حقل للألغام. ساعدنا يا إلهي على الخروج من هذا الوضع، ساعدنا !

كانت تتضرع وهي ترفع يدها نحو السماء السوداء. وبعد ساعة توقف إطلاق النار، وإستطاع أحد الفلاحين الذي تعاون على عبور القطيع الى سورية، أن يصل الى القرية. وأسرع ليطمئن القرويين وهو يلهث:

- لم يصب أحد بأذى ووصلت جميع المواشي الى أسفل الخط.

إن كلمة (حدود) غير موجودة بين كورد المنطقة. فبالنسبة لهم يزيل أعلى وأسفل الخط الحديدي الحدود بين سورية وتركيا. وهدأ الجمهور المتجمع في ساحة القرية الصغيرة. وتوقف نحيب وبكاء النساء، أما بالنسبة لسائقنا فقد كان مرتعاً لقلق لا يوصف. ورفض صراحة مواصلة السير الى دياربكر متذرعاً بكل أنواع الأخطار:

- ربما تأتيني طلقة في رأسي. فبعد كل هذا الإشتباك، تلقى الجيش الأمر بإطلاق النار خلال الليل على كل ما يتحرك في المنطقة. إني أنصحك بقضاء الليل في القرية وسيكون الرحيل إعتباراً من فجر غد.

ولكني وإبن عمي لم نكن نريد سوى مغادرة المكان دون تأخير. لقد كان قرار سائقنا نهائياً

لا رجوع عنه. ويبدو إن أصوات الطلقات كانت قد شلت حركته. ولم يكن لنا سوى الإذعان لرغبته.

– نعم، ولكن الى أين سنذهب لننام في هذه القرية التي لا تحتوي فندقاً أو نزلاً؟

فأجاب القرويون الذين كانوا يحيطون بنا بصوت واحد:

– حيثما تريدون وفي أي منزل من منازلنا. نحن دوماً في خدمة الضيوف بتقديم المسكن والمأكل لهم.

فإقترب أحدهم من إبن عمي وقال:

– لقد مات آغانا في مشفى ماردين وإلا لبتم في دار ضيافته.

– دعني أستضيفكم، ستنامون على السطح، ففي هذا الفصل تكون الليالي عليه رائعة جداً، فقبلنا عن طيب خاطر وسرنا الى منزله المبني من اللبن والطين. وفي لمح البصر، قُدم لنا البرغل مع اللبن الرائب. وبعد ذلك إستسلمنا الى النوم بسبب الإرهاق وبرودة ريح الشمال المداعبة. وفي الغد، إستيقظنا قبل شروق أشعة الشمس الأولى. وسرنا في سيارة (شيفروليه) قديمة بإتجاه دياربكر. وبسبب وجود الأخاديد والطرق الحجرية، لزمنا أكثر من ساعتين لقطع مسافة ستين كيلومتراً والوصول الى ماردين، وهي مدينة واقعة على قمة جبل ومشرفة على السهول الفسيحة لبلاد مابين النهرين العليا. في الحقيقة إنها مدينة ليست عادية بقلعتها المبنية منذ آلاف السنين ودورها المبنية من الحجارة البيضاء المنحوتة باليد، بالإضافة الى شوارعها الضيقة والمتعرجة وأهاليها الذين يتكلمون العربية الممتزجة بكلمات وعبارات كوردية. فتوقفنا فيها فترة يسيرة قبل مواصلة طريقنا الى ديار بكر.

وفي الطريق لاحظت وبمرارة الحالة المؤسفة التي تعيشها القرى الكوردية، فهي ليست سوى تكويم أكواخ طينية محرومة من الكهرباء والهاتف والمدارس والمشافي. ومع ذلك خفق قلبي حين رأيت نساء كورديات وهن يحملن الجرار على رؤوسهن ويحلبن نعاجهن تحت حرارة الشمس مرتدين ثياباً فولكلورية ورثنها عن أسلافهن، الثوب الطويل والصدرية والحزام والسراويل الفضفاضة والعمامة المتعددة الألوان. ومن بين الرجال عرفت أيضاً بعض العمامات الكوردية، كانت هذه السمات كلها تشير الى إخفاق سياسة التتريك لأنقرة. لقد ظل الشعب الكوردي هناك حقيقة، يعيش سالماً على مسقط رأسه. ولكن كان يجب أيضاً تنظيم حركة المقاومة الغريزية والعفوية ليتمكن من فرض إرادته القومية والخروج من حالة الإهمال والضيق. كنت أفكر بهذه المهمة الشاقة حينما لمحت أسوار دياربكر العملاقة السوداء. فدخلنا الى القلعة عبر باب ماردين، بإستثناء جادة واسعة كانت ممتدة على طول الأسوار، فإن الدور القديمة المبنية من الحجارة البازلتية السوداء إحتفظت بمظهرها الغابر. وكانت الشوارع مكتظة ومزدحمة جداً بالمارة. ومنذ عام ١٩٣٠ تضاعف سكان دياربكر خمسة أضعاف، فقد تجاوز

العدد من (٤٠) ألف نسمة الى (٢٠٠) ألف نسمة.

بالرغم من ندرة الصناعة فيها، فإنها كانت تتمتع بسلطة إدارية وزراعية وتجارية أنعشت عدداً هائلاً من الفلاحين والحضريين وسكان القرى المجاورة. وكانت عائلة إبن عمي الإقطاعية والبورجوازية الكبيرة تنتظرنا في (أرغاني). وفي سهل (گوران) وبينما كان سائقنا يبدل عجلة لسيارتنا، إقترب منا بخجل صبي يبلغ من العمر عشرة أو أحد عشر عاماً، كان يرعى أغنامه، فقلت له باللغة التركية:

- أهذه الأغنام لك؟

فأجابني بلغة كوردية وبلهجة متحدية:

-لاأفهم اللغة التركية.

فقلت له بالكوردية وأنا أتظاهر بالدهشة:

- كيف؟ ألا تذهب الى المدرسة؟

فأضاف بهدوء قائلاً:

- لا، ولماذا؟ لأنهم يرغموننا على تعلم اللغة التركية ونسيان لغتنا.

- أليس من الأفضل الذهاب الى مدرسة تركية بدلاً من أن تبقى جاهلاً؟

فأجاب منزعجاً:

- لن أبقى جاهلاً، ففي النهار أرعى أغنام القرية، وفي المساء أذهب الى (الملا).

- آه، نعم، لتفعل ماذا؟

- لأتعلم الكوردية طبعاً.

- وهل الحكومة تسمح لك بذلك دون أن تتدخل؟

- آه، كما تعلم، إن معلمنا (الملا) ذكي جداً، فهو يقول ظاهرياً بأنه يعلم القرآن والفقه.

- وماذا يعلمكم في الحقيقة؟

- يتكلم لنا بشكل خاص عن الشعراء ويعطينا أبيات شعر لنحفظها عن ظهر قلب.

- هل يمكنك أن تستظهر لي بعضاً منها؟

فبدأ الصبي حالاً ينشدني أبياتاً لأدباء كورد قدماء.

- أخبرني هل هناك الكثير من الملالي مثل معلمك (الملا) في هذه المنطقة؟

- لا أستطيع أن أقول شيئاً من ذلك لأنني لم أغادر قريتنا قط، ولكنني أعلم بأنه لمعلمنا (الملا) تلاميذاً يأتون لرؤيته من وقت لآخر.

- وأنت، هل تريد أن تبقى كوردياً أو أن تصبح تركياً؟

فأجابني وهو يحدق في بعينيه الواسعتين الداكنتين والمضيئتين:

- كلا ياسيدي، لا يستطيعون أن يجعلونا أتراكاً.

كنت أود أن أطيل حواري مع هذا الطفل ولكن السائق دعانا لنأخذ أماكننا. وبعيد الظهر وصلنا الى (أرغاني) ، وهي ضيعة يبلغ عدد سكانها حوالي عشرين ألف نسمة تمتد على أحد مرتفعات جبال طوروس. وأوصلتنا السيارة فوراً أمام منزل إبن عمي في أعلى المدينة. وكانت ڤيلتهم (قصرهم) تطل على حديقة واسعة منحدرة يسقيها حوض كان يُملأ بواسطة نبع غزير. إنه مرتع غزلي يشبه تلك الأماكن التي أمضيت فيها طفولتي. وبحلول الظلام، أوصلتني سيارة أخرى الى (إيلازيغ) حيث كان أخي (ريزو) الذي لم أره منذ سنوات طويلة، يعيش فيها منذ عام ١٩٥٠. وكان إسمه قد دون على قوائم الحزب الديمقراطي وإنتخب مرتين للمجلس النيابي وعاش بعيداً عن أي نشاط كوردي.

وبعد مراحل من الإشتباه وعدم الثقة، إستطاع أن يحوز على ثقة السلطات التركية ويعيش في وفاق تام معها. كان مناهضاً أيضاً لأية حركة تؤدي الى تعظيمها. وكنت أمثل خطراً واضحاً، ومع ذلك فقد إستقبلني بدموع الفرح. ومضى الأسبوع الأول في إيلازيغ في الفرح والغبطة. وتوافد العديد من أبناء وبنات عمومتي الذين لم أرهم منذ أكثر من ثلاثين عاماً، والذين ولد قسم كبير منهم بعد رحيلي، وذلك من كل مكان. لقد كان الجميع يريدون مشاهدتي والتحدث إلي. ثم دعيت الى الريف على لحم الخراف المشوي بالأسياخ والفواكه الطيبة التي كنت آكلها في طفولتي.

إستطعت أن أتجول بحرية في إيلازيغ وأقارنها بالمدينة التي كنت أعرفها سابقاً. ولسوء الحظ فقد كبرت إيلازيغ ضمن إطار الفوضى والبشاعة. فخلال السنوات العشرين الأخيرة، إتسعت بشكل كبير حتى أن معمل الإسمنت الذي كان الوحيد آنذاك في المناطق الكوردية في تركيا، بُني بفضل جهود نواب المحافظة، ولايزال قائماً حتى الان في المدينة. كان عدد سكانها عام ١٩٢٠ يبلغ (٢٠) ألف نسمة، أما الان فقد وصل الى (٩٠) ألف نسمة. بسبب قدوم معظم الفلاحين من القرى والضيع المجاورة، ولقد أدى هذا التدفق الى مشكلات إجتماعية خطيرة وهي: تضخم تجارة البيع بالمفرق، البطالة والجنوحية (مجموع الجرائم والجنح). وفي وسط المدينة، تحولت المنازل القديمة المبنية من اللبن والطين والمحاطة بأفنية مخضرة الى أبنية إسمنتية عملاقة تاركة بذلك مظهرها الهادىء. وكانت الشوارع المؤلفة من التربة المطروقة أو المجردة من الأسفلت، قذرة ومغبرة. كانت إيلازيغ قلما تهب مظهراً جذاباً، فلم أرغب قط البقاء فيها ولا في أية مدينة أخرى. فمنذ نعومة أظفاري كنت أحلم بالإقامة في (برماز) وهو سهل صغير ورائع على إرتفاع (١٢٠) متراً، تحيط به الجبال الجرداء ولكنها متلألئة، كانت

بحيرته تهدد سنوات صباي، وكانت الأراضي التي تركها لنا والدنا، تقع على بعد بضعة كيلومترات فقط من البحيرة.

كنت أتلهف لرؤية تلك الأماكن ثانية. وبينما كنت أفرح بقدوم ذلك اليوم لأحقق أحلامي، جاء أصدقاء أخي وهمسوا في أذنه أن الشرطة الإدارية إطلعت على وجودي في إيلازيغ وستبلغ سلطات الأمن المختصة بذلك (ميت - جهاز الإستخبارات). فأشار هؤلاء الأصدقاء على أخي بأن أبتعد عن المناطق الكوردية. ونتيجة هذا الإنذار حزم أخي أمتعتي ووضعني في باص على أهبة السفر لإستانبول. وإن ما يدعو الى الغرابة هو أننا لم نتعرض أبداً الى تفتيش البطاقات الشخصية. فقد كانت تركيا تعيش حينئذ فترة من أفضل فترات تاريخها ديمقراطية. وفي إستانبول، كان إبن عم لنا موظفاً سابقاً ذا مكانة سامية، له صلات وثيقة مع الإدارة، حتى إنه كان يعرف رئيس جهاز (ميت). فباشر القيام على الفور بإجراءات وبمخابرة هاتفية الى دياربكر، علم مسؤول أستخبارات إستانبول عن وجود ملف كبير بإسمي كان فيه نشاطي السياسي في بيروت قبل تسليمي سورية. وحذر إبن عمي من دعوتي للعودة الى تركيا.

لقد كان هذا النبأ مخيفاً ومحيراً في آن واحد. فقد كنت في تركيا ويستحيل علي العودة الى سورية، ما العمل إذاً؟ هل أحصل على جواز سفر تركي وأذهب الى أوروپا؟ وما العمل إذا كان جهاز (ميت) قد أعطى أوصافي الى المخافر الحدودية؟ أخيراً إذا كنت قد جئت الى تركيا، فذلك بنية البقاء والعيش في المناطق الكوردية وبين أحضان الشعب الكوردي.. هذا المشروع الذي كان يبدو معرضاً للخطر من ساعة لأخرى وإرتأى أخي بأن يلتقي بكبار مسؤولي الحكومة لكي يعرض عليهم المشكلة فرحل الى أنقرة وإستُقبل إستقبالاً حاراً من قبل الزعيم (ديميريل) الذي كانت تربطه به علاقات الصداقة، وإستُقبل أيضاً من قبل وزير الداخلية.

- سوف نسأل مدينة (ماردين) ما إذا كان شقيقك مازال يحمل الجنسية التركية. أكتب له رسالة ليعود الى وطنه الأصلي دون تأخير وسيُستقبل بحفاوة. وما أطلبه منك هو أن توجه طلباً خطياً محدداً فيه أن أخاك غادر تركيا وهو طفل صغير وإنه يريد الآن العودة إليها. وبعد شهر تقريباً سوف أعطيك الجواب. وحينما سمع أخي كلام مسؤولي الدولة الكبار، قدم طلبه حالاً. وفي اليوم التالي عاد الى إستانبول وقلبه مفعم بالأمل والتفاؤل. وبما أنني كان مفروضاً علي أن أكون في سوريا، فقد تقرر أن أعيش في إستانبول شبه مختفي، بإنتظار رد وزارة الداخلية الذي كنا نعتقد بأنه سيكون إيجابياً لأنني لم يشطب إسمي من السجل المدني. وحينما إقتنع أخي بصدق الوزراء. إستأجر لي شقة صغيرة في أحد الشوارع (بيوغلو) وعاد الى إيلازيغ. ولقد طالت إقامتي في إستانبول دون أن يظهر عن السيد الوزير شيء، وفي الشهر الثامن زارت شرطة إيلازيغ الإدارية أخي وقالت له:

- إننا نعلم بأن أخاك يتمتع بالجنسية التركية وأنه موجود في تركيا منذ بعض الوقت. هذا

من حقه ولا نستطيع أبداً أن نقف في طريق إرادته. نريد أن يأتي من تلقاء نفسه ليرانا ويجيب عن بعض الأسئلة. فأطلعني أخي على هذه المقابلة وإقترح عليَّ بفطنة أن أعود الى إيلازيغ. وبما إنني كنت أخشى من فخ حكومي، فقد رفضت أن ألقي نفسي في خطر مداهم بلا تروٍ وتابعت العيش في إستانبول بشكل سري أكثر من السابق، لاأنزل الى الشارع إلا نادراً وبعد حلول الظلام. وما إن مضى أسبوعان حتى جاءني مبعوث جديد من أخي يخبرني بأن الشرطة تريد أن تراني وأنها لن تجد أية صعوبة لإيجادي إن شاءت ونتيجة لهذا التهديد، لم يبق لدي ما أفعله سوى الذهاب الى إيلازيغ.

وغداة وصولي، ذهبت الى مفوض الشرطة الإدارية بصحبة أحد أصدقاء العائلة، وطرح عليّ أسئلة تافهة جداً. وحسب الطريقة التي كان يوجّه بها الأسئلة، فهمت بأن معظمها كانت تتعلق بالجنسية السورية، فهل كنت قد حصلت عليها ؟ حسب القوانين التركية، كنت أعلم بأن الحصول على جنسية أجنبية دون موافقة حكومة أنقرة، كان يمكن أن يؤدي الى فقدان الجنسية التركية. أيضاً كان يجب أن يكون التجنس إرادياً وحسب مشيئة الرجل البالغ وليس مفروضاً على صبي مثلي. ولفتُّ إنتباه المفوض الى هذه الناحية راجياً منه أن يركز عليها جيداً. ونصحني بأن أنام قرير العين هادئاً لأن كل شيء سيتم حسب رغباته. وفي البيت كان أخي وعائلته وأخواتي وأبناء عمومتي ينتظرون بقلق أخبار لقائي مع المفوض. وحينما علموا بما جرى بالإضافة الى كلام المفوض المطمئن، طاروا فرحاً، وإرتموا على عنقي.

– لقد إنتهت الهموم! سيدعونك تعيش بسلام بيننا، لقد تأكدنا من ذلك الآن.

لكن فرحتهم لم تدم طويلاً. ففي الغد، إستدعاني رئيس جهاز الإستخبارات (ميت) في إيلازيغ، وكان السيدان اللذان إستقبلاني، متضايقان ولاسيما مدير الشرطة، أما مسؤول الإستخبارات فقد كان يضع نظارات شمسية غريبة وداكنة جداً بينما كانت الغرفة سيئة الإنارة....... ولقد بقيت في مقابلة أكثر من ثلاث ساعات، وألقى علي وابلاً من الأسئلة وإستجوبني أيضاً حول إقامتي في سويسرا وحول نشاطي الكوردي في أوروبا. وتيقنت أن ملفي كان يحتوي على جميع هذه التفاصيل وأن القائد قد تلاه بتمهل وروية. وكان بقائي الذي دام طويلاً لدى رئيس الإستخبارات قد سبب جنوناً تاماً في منزل أخي. فكانت النساء يبكين ولم يستطع الرجال أن يكتموا قلقهم وقالوا:

– ماذا جرى لكم؟ إطمئنوا، لقد أصبح جهاز الإستخبارات وديعاً كالحمل.

فأجاب أخي:

– نعم، أصحيح ذلك؟ إذاً أخبرنا بسرعة عما جرى مع القائد.

فعرف أخي أن هؤلاء الناس كانوا يعلمون عني كل شيء وأن ما يهمهم الآن هو معرفة ما إذا كنت قد تعقلت تماماً أو بقيت "مغامراً للقومية الكوردية".

فقال لي القائد:

- إعلم إن الأوساط التركية المسؤولة تخشى من كل ما يسمى كوردي، وأن المهمة الأساسية لجهاز (ميت) هي مراقبة ومحاربة أي طيف قومي لهذا الشعب. فإن شئت البقاء في تركيا وإيجاد السلام فيها، فلا يجب أن تفكر بذلك مطلقاً.

فقلت له:

- إن التخلي عن قضية سببت لي المتاعب خلال قسم كبير من حياتي ليس أمراً ممكناً. ونظراً للظروف التي أعيشها، سأبذل أقصى جهدي لئلا ألفت إنتباه السلطات خلال بضع سنوات على الأقل. فقال أخي وهو يرفع عينيه الى السماء متوسلاً:

-سوف أتوسل وأرجو لتتمكن من أن تتمالك نفسك ولكي لا تصبح مهوى أفئدة الشباب القوميين الكورد والذين وقعوا في نزاع مع الحكومة.

كان (ريزو) مؤمناً وممارساً مخلصاً في واجباته الدينية ويرجو دوماً، بصفاء طفل، الرحمة الإلهية في المواقف الصعبة والمعقدة. وبما إنني كنت مرغماً على قبول مصيري، فقد آثرت البقاء في منزل أخي لأنتظر قرار الحكومة.. وأمضيت شهرين لا أخرج من المنزل ولا أستقبل إلا زيارات نادرة جداً. وفي بداية تموز عام ١٩٦٨، كان إبن عم لي يملك ملكاً واسعاً في (برماز) دعاني لقضاء فصل الصيف فيه وكان ذلك أجمل ما رأيته في حياتي.

وفي الخريف، وبما إن أخبار السلطات إنقطعت، فقد إستنتجت بأنها قد رضيت ضمنياً بإقامتي في تركيا، وعزمت على الدخول في عالم الزراعة بإستثمار أملاك والدي التي لازالت باقية في سهل (گوران) بين (أرغاني ودياربكر). ففي عهد أبي، كنا نملك فيه أكثر من (١٠) آلاف هكتار من الأراضي الزراعية الملائمة جداً لزراعة القمح القاسي.. ولم يبق منها لدينا سوى (٢٠٠٠) هكتار، حيث كان أخي يؤجرها، مكتفياً بفائدة قليلة نظراً للإتلاف الذي كانت حشرة (السونه) تسببه. وإتصلت مع المزارعين الذين يملكون جرارات ولكنهم لا يملكون سوى أراضي قليلة وأبلغتهم عن نياتي. وإقترح شريكان ليتعاونا معي بشرط مناصفة الأرباح وأن أضع الأرض والبذار تحت تصرفهم، فقلت:

- إتفقنا، ولكن إن ظهرت حشرة السونه قبل الحصاد، ما العمل؟

فأجابا وهما يهزان كتفيهما:

- إنها مغامرة، ولكن يبدو أن الحكومة عزمت هذه السنة التصرف بحزم وذلك برش مبيد الحشرات المناسب بواسطة الطائرات في الوقت المناسب. ولن نزرع سوى القمح القاسي. سوف نخصص قسماً من الأرض لزراعة الذرة البيضاء التي تكون بمنأى عن حشرة السونه.

وبعد بضعة أيام بدأت الأعمال، ولكي نضمن دخلاً عالياً، إستطعنا الحصول على كمية

كافية من السماد الكيمياوي. ولكي أقوم بهذه المهمة على أكمل وجه، عزمت على البقاء في (أرغاني) وهي على بعد (١٥) كيلومتراً من أراضينا. لقد سار كل شيء على ما يرام وهطلت الأمطار في الأوقات المناسبة. وفي بداية شهر أيار، كانت زراعتنا تنمو بشكل مدهش بإخضرار بهي ينعش الروح. كنا على ثقة من نجاح محاصيلنا، ونفرح بها كثيراً. وفي ذلك الوقت، أطلعني مقال مقتطف من (الجريدة الرسمية) أن حكومة أنقرة قد حرمتني من الجنسية التركية. لقد كانت تلك صدمة رهيبة.

وحينما ثبت الى رشدي، هرعت الى السراي لأجد فيه (نيازي إينجه) وهو كاتب المحكمة، وكنت على صداقة وثيقة به. كان من أصل كوردي ولكنه لم يجرؤ أن يصرح بذلك علناً. كان (إينجه) رجلاً في غاية النزاهة والطيب وكان يهبّ لخدمة كل من يقرع بابه ولاسيما عامة الناس الذين يكونون عادة ألعوبة الموظفين. كان يعلم أنني قومي كوردي. وفي ذلك اليوم ، وحينما أظهرت له الجريدة الرسمية، نظر الي بحزن عميق وقال:

- لك الحق باللجوء الى مجلس الدولة. يجب عليك دون إضاعة الوقت، الذهاب الى دياربكر ومنها الى أنقرة. ولكن عليك أن تفهم أولاً الأسباب الشرعية لحرمانك من الجنسية التركية. سأعطيك بطاقتين لصديقين لي، أحدهما في دياربكر والآخر في أنقرة. وكلاهما يعمل في السجلات العامة للأحوال المدنية ويمكنهما مساعدتك.

فحملت بطاقتيّ (نيازي إينجه) وذهبت أولاً الى دياربكر حيث إلتقيت بموظف السجل المدني. وما إن عرفني حتى قال لي بجفاء:

- لقد أخطأت في العنوان ياسيد، تلك الأمور غريبة على وظيفتي.

بهذه الكلمات مزق بطاقة (نيازي إينجه) ورماها في سلة المهملات. فنظرت اليه بحزم، وإذا به يصفر لونه ويرتعش..... لقد كان هذا الموظف كوردي الأصل قد أُخذ في دوامة التتريك وكان يخشى من كل ماهو كوردي وبالنتيجة، كنت ألاحظ بأن السلطات التركية إستطاعت أن ترسخ هذه العقيدة في نفوس عدد كبير من الكورد المستخدمين في الإدارة وخاصة بين الموظفين على مستوى عال.

وفي السجل المدني في أنقرة، قرأ صديق (نيازي إينجه) تركي الأصل البطاقة التي وُجهت إليه وذهب ليستخبر ودام غيابه بشكل مدهش.. ولدى عودته لاحظت شيئاً من الرعب في حركاته وصوته. ولقد تجرأ على أن يهمس لي بمحاولة مقابلة المدير. وبعد بضع دقائق، أدخلني أحد الحجاب الى مكتب السكرتير الذي وجد ملفي فوراً.. فقال بصوت متعجرف:

- هذا بسيط، لقد حُرمت من الجنسية التركية لأنك قبلت جنسية الدولة السورية دون موافقة حكومتنا.

- ولكن كنت طفلاً ولا يُطبّق القانون على وضعي.

- هذا ليس من شأننا، إذهب وخاطب مجلس الدولة!

لقد كنت حائراً ولكن لم تثبط عزيمتي بعد. فقال لي الصديق المحامي (غالب) الذي إستشرته:

- إن مشكلتك معقدة لأن المسألة الكوردية هي الكابوس الذي يرعب الناس في بلادنا فوراً. يجب أن نجد شخصاً جريئاً يثبت عدم شرعية قرار الحكومة تجاهك. فإذا إستطعنا أن نكسب (رمزي) الى جانبنا، فإن قضيتنا ستفوز.

كان (رمزي) عضو مجلس الدولة ورئيس المكتب الحادي عشر، وهو إبن عم بعيد لعائلتنا. فقال لي:

- لا أُبدي رأيي عن ماضيك السياسي، ولكن حول المستوى القانوني، إن الحكومة مخطئة وأتكفل بأن مجلس الدولة سيُلغي قراره المتعلق بك.

لقد سُرّ (غالب) من موقف (رمزي) وحثني على الذهاب الى أقرب كاتب عدل لأوكله. وهكذا وحسبما إتفُق عليه، رفع (غالب) الإستئناف وإنتظرنا إجتماع المجلس الذي سينعقد بعد عشرين يوماً. ولقد رُفض الطعن لسبب بسيط وهو أنه لم يكن هناك أي شخص يدافع عني. ووجد (رمزي) وصديق كوردي آخر من دياربكر أعذاراً لعدم حضور إجتماع المجلس، ولم يكن غالب يقبل مثل هذا الجبن وصاح وهو يوجه ضربات بقبضة يده على طاولته:

- بسبب نذالة مثقفينا والمنحطين يسيطر علينا الأتراك ويضطهدوننا، ولكن لا تخف، يحق لنا أن نطعن في القرار مرتين أخريين. سأقدم الطعن الثاني في هذا اليوم، وبإنتظار ذلك، عد الى (أرغاني) وحافظ على زراعتك.

أما (نيازي إينجه) الذي شرحت له الأحداث، فقد قلق ولعن الناس الذين ذهبت إليهم:

- إذا ما فُسخ قرار الطعن مجدداً من قبل مجلس الدولة، يجب أن ننتظر قرار إعتقالك ونفيك من تركيا. وذلك القرار الذي سأكون أول من يتسلمه ويجب أن أسلمه بدوري الى وكيل الوالي. وفي غضون ذلك أحذّرك. حاول أن تسوي أمورك الى ذلك الحين.

قلما كانت أعمالي وزراعتي مشرفة لأن حشرة السونه بدأت أعمالها التخريبية وبدلاً من أن يواجه شريكاي الموقف، كانا يتأملان بأسى مجموعات من الحشرات المصفرّة التي إستقرت على السنابل. فقلت لهما ويكاد قلبي يتمزق:

- إذاً، ستبقيان هكذا مكتوفي الأيدي؟

- ماذا يمكننا أن نفعل؟ ليس عندنا أي شيء لنتقي هجومها.

- الطائرات؟

- لقد أرسلت الحكومة طائرتين صغيرتين فقط وهما تعسكران على بعد خمسة كيلومترات

الى الجنوب، على أرض (ناجي يلماز).

- من هو؟

- هو تركي من أزمير، إشترى منذ بضع سنوات مساحة واسعة من الأراضي في المنطقة وتدبر أمره مع الطيارين لئلا تحلق إلا على حقوله....

- هيا لنرى هؤلاء الطيارين!

فأجاب شريكاي:

- بلا جدوى، لن يصغوا إليك. ومن جهة أخرى لقد فات الأوان.

فإمتطيت حصاني وحينما وصلت أمام خيمة الطيارين، أخبرني أحد الحراس قائلاً:

- لقد عملوا طوال الفترة الصباحية والآن يستريحون ولدى إستيقاظهم، عاتبتهم على رأيهم المُبتَسَر (رأي لا رجوع عنه) وطلبت منهم أن يهتموا أيضاً بالحقول المهددة الأخرى، وحاول أحد الطيارين أن يهدىء من روعي:

- لا تغضب بلا سبب لأننا مُرسلون الى هنا لنحارب حشرة السونه أينما كانت، فإن لم نأت إليك، فهذا يعود الى أن وسائلنا محدودة، وأنه مازال أمامنا الكثير من العمل من هذه الناحية. ولكن أشّر لي أماكن زراعتك لكي آتي إليها وأعالجها غداً ومنذ الصباح الباكر.

في الحقيقة، وفي اليوم التالي وصلت الطائرة في الساعة الثامنة وحلقت فوق حقولنا مدوية، وألقت على الحقل دخاناً كثيفاً مائلاً الى البياض وما إن عالجت ربع مساحة الأرض حتى إنتهى المبيد الحشري.

وبدت جميع محاولاتي لحث الطيارين بلا طائل. فالبرقيات المُرسلة الى أدنة وأنقرة لكي يطلبوا منهما كميات جديدة من المبيدات لم تجد آذاناً صاغية بسبب فقدانها من المستودعات الحكومية وأنه يجب إرسال طلبات جديدة الى ألمانيا، التي كانت تحظرها على الحكومة التركية نظراً لقلة النقد.

وبعد أسبوعين وبواسطة الحصادة، لم نحصد سوى أربعة أطنان من القمح المصاب بحشرة السونه، أي حبوب مثقوبة ونصفها فارغ، وذلك مقابل عشرة أطنان من البذار. لقد كانت الصدمة قاسية. بقيت لدينا الذرة البيضاء التي، لحسن الحظ، استمرت في النمو كما يحلو لها. كنا نأمل أن تعوض على الأقل الخسارة الحاصلة من القمح. ولقد تسارعت الأحداث لدرجة أنني إستحال علي الحضور لحصادها. وفي ٢ تموز ١٩٧٠ أخذني صديقي الشجاع (نيازي إينجه) بسرعة الى مكتبه، والوثيقة التي سلمني إياها صدرت من وزارة الداخلية، وتوجب ترقين إسمي من السجل المدني في (أرغاني). وكان التنبيه الوزاري يحذر من أنه يجب على الشرطة أن تعلم بهذا التحول وكانت تأمر بإعتقالي وإبعادي من البلاد مادمت

أجنبياً. وهكذا، وبعد إعتقال يطول ولا أدري في أي مكان في تركيا، سأسلم الى سورية ولا أستطيع تصديق ذلك. فهدّأ نيازي إينجه من روعي وقال:

- لا تخف أبداً، لن أطبق هذا الأمر حرفياً. سأضع هذه الوثيقة تحت كل الوثائق الأخرى التي سأسلمها الى وكيل الوالي وسأحتفظ بالوثيقة التي تخصك خلال خمسة عشر يوماً. وخلال هذا الوقت، ألا يمكنك أن تدبر نفسك لمغادرة تركيا؟

- نعم لدي جواز سفر. كان صديق لي قد أخرجه لي برشوة أحد رجال الشرطة في دياربكر. ولم يعلم جهاز الإستخبارات (ميت) بذلك. ومع ذلك وقبل مغادرة تركيا سأذهب وأجد محامياً في أنقرة لأعلم ما إذا كان يملك بصيصاً من الأمل لتسوية الأمر بالطريقة القانونية.

وبينما كنت أتحدث، أخرج نيازي إينجه زجاجة صغيرة من جيبه وبلع قرصاً (برشاناً)

- ولكن هذا (ترينبترين)، لماذا تستعمله؟ هل تشعر بأزمات قلبية؟

- منذ بضعة أيام أشعر بوعكة صحية. وأخبرني الطبيب الذي إستشرته بأنها ليست خطرة ووصف لي هذا الدواء. وحينما أشعر بضيق في القلب، أتناول قرصاً.

فقلت له بإلحاح:

- ولكن كان عليك أن تستشير طبيباً إختصاصياً بأمراض القلب.

- من أجل ذلك كان يجب أن أذهب الى أنقرة أو إستانبول وليس لدي الوقت ولا الوسائل. ومن ثم فإن إضطرابي لا يحتاج بالتأكيد الى رحلة كهذه.

فإقترحت على نيازي إينجه نقله الى أنقرة ليُعايَن من قبل طبيب مختص ذائع الصيت، ولكن عبثاً. فبعد أن أصررت عليه عدة مرات، غادرته وأنا أذرف الدموع وصعدت الباص بإتجاه أنقره عن طريق إيلازيغ. لقد كان صديقي المحامي مُثبَط العزيمة ومتشائماً بشأني، فقد كان ظل الاستخبارات (ميت) يخيم على مجلس الدولة. ولم يكن أي قاض يجرؤ على أن يأخذ قرار الطعن بعين الإعتبار ضد قرار الحكومة. فلم أستحسن تشاؤمه ونويت البحث عن محام أكثر حباً للدفاع والقتال. ولم يكن لدي الوقت. وفي اليوم التالي، جاءني خبر مؤثر، ألا وهو أن صديقي الوفي الذي عمل كل ما بوسعه لإنقاذي إنتقل الى جوار ربه. فقص لي إبن عمي قائلاً:

- بعد ثلاثة أيام من رحيلك، جاء أمر جديد ومستعجل هذه المرة بشأنك الى مقر وكيل الوالي في (أرغاني) وكان (نيازي إينجه) قلقاً ولايدري ما يفعل. وبينما كنا نبحث عن حل للمشكلة وإذا به يصاب بنوبة قلبية حادة. وسقط أمامي على طاولة عمله. ولم يستطع الطبيب الوحيد في المدينة الذي إستدعيته سوى أن يؤكد وفاته الطبيعية، فلم يكن قلبه يخفق. إنها مصيبة عظيمة، فقد كان (نيازي إينجه) رجلاً رائعاً ومثلاً يُحتذى به في النزاهة.

ولقد قمنا بتبرعات لندفع ديونه للبقالين والخبازين وأصحاب مقاهي المدينة.

لقد حاولت أن لا أشهق من البكاء. كان نيازي مريضاً ولم أستطع أن أفعل له شيئاً. حقاً إن تفانيه والهموم التي سببتها له أسرعت في موته، وكان قلبي يمتليء بالشعور بالذنب والأسى. فلم أقو على النضال لأحقق مطالبي وأنا مستعد الآن لمغادرة مسقط رأسي وأجمل سنوات طفولتي. وإقترح في إيلازيغ بمرافقتهم في حافلتهم التي على وشك الإنطلاق الى (ميونخ) فقبلت ذلك، وبعد أن أخبروني بأنهم يستطيعون دوماً أن يطلعوا عائلتي إن حصلت لي متاعب على الحدود. ولم تغادر حافلتنا إستانبول وإستولي عليّ حينئذ حزن مبهم. كنت وربما للمرة الأخيرة أرى الأماكن التي أحببتها وهي المقاهي التي كنت ألتقي فيها سراً بالشعراء والكتاب القوميين الكورد، وبالطلاب الثوريين الجامعيين حيث كانوا يقاتلون العصابات الفاشية التي شُكّلت ووُجهت ضدهم. كما إنني كنت يائساً لمغادرتي مسارح إستانبول...

كنت أتذكر جميع هذه الأحداث حينما سمعت فجأة إسم (كابيكالا) لقد كان ذلك نقطة المراقبة التركية على الحدود البلغارية. وكانت الساعة تشير الى العاشرة والنصف ليلاً...وما إن توقفت الحافلة حتى صعد موظف مدني إليها وطلب جوازات سفرنا وأخذها الى نقطة المراقبة. وكان دركيان يحملان بندقيتين آليتين يحرسان الحافلة من الجهتين، بينما كان رئيسهما يفحص وثائقنا ويستدعي مسافراً من وقت لآخر. في كل مرة كان قلبي يدق كطبل وأكاد أختنق كما لو أن حية تُلفُّ حول عنقي وتخنقني. وإستمر هذا التوتر أكثر من ساعتين، وبدا لي أنه أبدي وسيطول حتى الصباح.

وخطرت على بال أحد السائقين فكرة جيدة وهي الذهاب الى مخفر الشرطة. وعاد منه على الفور مبتسماً. لقد سُلّمت إلينا جميع جوازات السفر وإرتسمت البسمة على شفاه الجميع. وتمنى لنا رجال الگمارك والشرطة التركية رحلة سعيدة. ولم أصدق ما حدث وكنت لا زلت أخشى من أن يغيّر الموظفون رأيهم في اللحظة الأخيرة قبل أن يُغلق الباب المعدني الكبير. وحينما وصلنا فعلاً الى الأراضي البلغارية، شعرت أخيراً بأنني بعيد عن الخطر وأردت التعبير عن فرحتي وأن أصيح بصوت عال:

– حر، حر، أنا حر طليق!

وبعد ذلك خلدت الى النوم مطمئناً، ولم أستيقظ إلا صباح اليوم التالي.

كنا في (صوفيا)، هذه المدينة التي كنت قد زرتها عام ١٩٤٩ والتي لم تكن حينئذ سوى ضيعة ريفية صغيرة. أما الآن فأراها مدينة عصرية ذات جادات واسعة وأنفاق مضاءة جيداً. ولقد أثار الريف البلغاري إعجابي ببساتينه المحفوظة بعناية بالغة وكرومه المتألقة.

كنت أسير من رؤيا لأخرى... وفي النمسا، دُهشت للتطور الذي تم منذ عام ١٩٥٦. وفي ألمانيا وجدت نفسي في مواجهة المجتمع الإستهلاكي الذي وُصف كثيراً وذُمّ من قبل الصحافة

الغربية. وكانت رؤية التاجر الكبير مع جمع من المشترين تبدو لي غير واقعية.

وكنت أسرع بالذهاب الى سويسرا، بلد دراستي وأعز أصدقائي. لقد إستقبلني المجتمع إستقبالاً حاراً وأخوياً. كان ذلك في صيف عام ١٩٧٠. وبعد بضعة أشهر، حصلت على حق اللجوء السياسي. وفي عام ١٩٧٢ تزوجت من فتاة سويسرية كانت تعرف القضية الكوردية، وكانت قد جابت كوردستان تركيا. وفي ربيع عام ١٩٧٣، وقبل عيد (النوروز) بيومين، وُلد لي طفل أحبّ أن يغني أغاني كوردية كما يغني أغاني فرنسية وتركية وعربية وأرمنية.

أخيراً وفي خريف عام ١٩٧٨ أصبحت مواطناً لبلد كنت دوماً أضرب به المثل في النظام الديمقراطي وأشعر فيه دوماً بأنني في بلدي. كنت أرتبط كل يوم إرتباطاً وثيقاً بسويسرا. لقد كانت مناظرها تذكرني بالطبيعة الجبلية والبحيرات ومساقط المياه في كوردستان. أنظر حينما يسقط الثلج على شكل عواصف وزوابع ثلجية وعندما يصفع الهواء البارد والجاف خدي مثلما كنت طفلاً صغيراً في كوردستان، كنت أود أن أتدحرج على الثلج من البهجة والسعادة. إني سعيد أيضاً حينما تزهر الأشجار وترقص حقول القمح، لاتغرب كوردستان عن بالي قط. كوردستان لازالت تعيش ولكنها مجزأة بين تركيا وإيران والعراق وسورية. وهي الآن عرضة (عام ١٩٨٢) للقمع والإضطهاد كما كان في الأمس.

رجل طليق في بلد ديمقراطي، لاأقدر عدم مشاهدة وجوه الكورد المعدمين والمعذبين اليوم في منطقة الشرق الأوسط بسب إنتمائهم العرقي. هذه النظرات من الأطفال والنساء والرجال والشيوخ كانت تسألني كل يوم. متى سيهب الرجال وحكامهم حقاً وحقيقة بحل جميع مشكلات القمع والإحتلال العالمية؟ أجهل ذلك وما أعرفه هو أنه مادام الكائن البشري يُداس بالأقدام ويُضطهد في كل أنحاء العالم، فإن البشرية لايمكن أن تحلم بأيام سعيدة أفضل.

بوسيني، شباط عام ١٩٨٢

كوردستان والكورد

كوردستان بلاد دولية مجزأة بين تركيا وإيران والعراق وسورية، يبلغ تعداد سكانها (٢٢) مليون نسمة، وتبلغ مساحتها حوالي (٥٠٠) ألف كيلومتر مربع، وهي على شكل منجل أو هلال، تمتد من البحر الأسود والخليج العربي (الفارسي) ومن الهضبة الإيرانية الى خليج الإسكندرونة، وهي تشكل العمود الفقري للشرق الأوسط.

بلاد جبلية:

أشتهرت هذه البلاد بجمالها وعلوّ جبالها، فجبل أرارات الذي رست عليه سفينة نوح يتجاوز إرتفاعه (٥٤٠٠) متر ويبلغ إرتفاع جبل قرةداغ ثلاثة آلاف متر وپيرةمگرون في العراق (٣٢٠٠) متر، وجبل سيپان الذي يتردد ذكره في الأغاني الأسطورية يبلغ إرتفاعه أربعة آلاف متر، وقد ورد ذكر كوردستان في التوراة ايضاً.

وينبع نهرا دجلة والفرات في أواسط البلاد الكوردية ولهما العديد من الروافد، ومنها مراد صو، الزاب الصغير، الزاب الكبير، ونهر ديالى (سيروان) وروافد أخرى. وتشكل هذه الروافد ممراً ضيقاً عبر الجبال وتروي ودياناً وسهولاً خصبة جداً مثل سهل أورفا ودياربكر والجزيرة وموش وأربيل وكركوك.

تمتلك كوردستان، المكونة من مناطق جبلية في معظمها، ثروات نفيسة فمرتفعاتها مغطاة بالأحراش والمراعي بينما تنجح زراعة الحنطة والشعير والرز والقطن والتبغ في سهولها ووديانها الى جانب الأشجار المثمرة كالتفاح والخوخ والأجاص والتين والجوز واللوز ومختلف أنواع الكروم التي تبلغ أصنافها أكثر من ستين صنفاً. كما تمثل تربية المواشي والأغنام أهم مصادر الدخل في كوردستان. والثروات المعدنية موجودة بكميات لايستهان بها مثل النحاس والكروم والحديد والفحم الحجري والرصاص والذهب والفضة، لكن هذه الثروات المعدنية لم يتم إستغلالها إلا على نطاق ضيق جداً، فالنحاس والكروم لايتم إستخراجهما إلا في مدينة مادن بكوردستان تركيا، ولايستفيد منها الكورد بل تذهب عائداتها الى الحكومات المركزية التركية والعراقية والإيرانية والسورية. كذلك الحال بالنسبة للنفط الذي يعد كنز ومصيبة الشعب الكوردي والذي لولاه لما تعرض الكورد لما تعرضوا له من جانب بعض الدول العظمى. فأشهر حقول النفط في العراق تقع في الموصل وكركوك وخانقين، وفي تركيا تقع حقول النفط في باطمان وگوران وفي سورية توجد حقول النفط في الجزيرة في حقول كراتشوك ويتم نقله عبر خط أنابيب الى طرطوس على البحر الأبيض، إضافة الى حقول نفط كرمنشاه وهمدان في إيران.

حياة الحضر:

إن معظم المدن الكوردية مبنية في مواقع رائعة ولها تاريخ عريق فدياربكر تقع على نهر

دجلة، ويبلغ عدد سكانها اليوم (٣٥٠) ألف نسمة، وهي محاطة بأسوار سميكة لاتزال قائمة منذ آلاف السنين، ومدينة بدليس تقع على إرتفاع (١٥٠٠) متر وهي العاصمة القديمة لإمارة شرفخان وقد بنيت منذ حوالي عشرة آلاف سنة، ومدينة أربيل التي إنتصر فيها الإسكندر الأكبر على داريوس مازالت قلعتها قائمة، وهناك مدن أخرى يتجاوز عدد سكانها (١٥٠) ألفاً مثل ملاطية وأرضروم في كوردستان تركيا، وكرمنشاه في كوردستان إيران، والسليمانية وكركوك في كوردستان العراق، ويعيش القسم الأكبر من الكورد الحضريين على التجارة والحرف اليدوية من قبيل الحياكة وصناعة السجاد واللباد والصياغة والدباغة، وقد إنتقل الكثير منهم الى المدن التركية والعربية والفارسية بحثاً عن العمل وهناك أكثر من (٢٦٥) ألف عامل كوردي يعملون حالياً في أوروبا الغربية منهم مائتا ألف في ألمانيا.

٢٢ مليون كوردي على الأقل:

إن تحديد العدد الحقيقي لسكان كوردستان ليس بالأمر السهل لأن إحصائيات الحكومات التي تهيمن على كوردستان تغفل في كثير من الأحيان الإشارة الى الأصل العرقي للسكان، لكن يمكن تقريب العدد الى (٢٢) مليون كوردي موزعين على النحو التالي: (١٢) مليوناً في تركيا، وستة ملايين في إيران، و٣,٥ مليون في العراق، ونصف مليون في سورية. ولا يدخل في هذا الحساب كورد الإتحاد السوڤيتي، الذين يتجمعون بشكل رئيسي في أرمينيا، ولا كورد المناطق المعزولة في خراسان في بلاد فارس وفي الأناضول الغربية ولبنان ومناطق أخرى. ولكن من هم الكورد؟

أحفاد الميديين:

ينحدر الكورد من الأصول الهندو-أوروپية التي كونت دولاً عظمى في الشرق الأوسط منذ أقدم العصور كالميتانيين والگوتيين والبليين والكاشيين والميديين. إستطاع الميديون توحيد الأشقياء من سكان جبال زاگروس وطوروس وشمال غرب الهضبة الإيرانية، وكان لهم زعيم حربي وحاكم عظيم هو سياكزار الذي نظم جيشه على غرار الجيش الآشوري وحافظ دوماً على نوعية فرسانه.

في عام ٦١٢ ق.م تمكن سياكزار من التحالف مع البابليين والإستيلاء على نينوى وقضى بذلك على الإمبراطورية الآشورية، أما آخر ملك مستقل لهم فهو أستياج الذي هزم سنة ٥٤٩ على يد سيروس الأكبر، وبعد وصول الفرس الذين كانوا أبناء عمومة الميديين الى السلطة إرتبط مصير الكورد بمصير الإمبراطوريات الإيرانية التي قادها الفرس حتى الفتوحات العربية.

من زرادشت الى الإسلام:

لم تصمد الإمبراطورية الفارسية الساسانية في وجه القبائل العربية التي دب فيها النشاط

بفضل إعتناقهم الإسلام، وقد أدى إنهيارها عام ٦٥٢ ميلادية الى إضعاف العقيدة الزرادشتية والدخول التدريجي للإيرانيين في الإسلام. وفي تلك الفترة كان الكورد في جبالهم يبدون مقاومة عنيفة ضد جيوش الخلفاء، وخلال القرنين العاشر والحادي عشر ولأسباب غير واضحة إعتنق أغلبهم الإسلام.

لقد كان الدين الأصلي للكورد الديانة الزرادشتية وهي ديانة تدعو الى التوحيد. أما اليوم فإن الغالبية من الكورد هم من المسلمين السنة، وهناك ايضاً نصارى ويهود وإيزيديون (الذين يعتنقون زرادشتية تأثرت بالإسلام والمسيحية) وفي تلك الفترة وبسبب من ضعف السلطة المركزية للخلفاء أنشأ الكورد عدة ممالك مستقلة ومزدهرة منها الشداديين والمروانيين والحسنيين والأيوبيين وممالك أخرى كان ملوكها نصراء للعلم والعلماء والفنانين والأدباء، وقد إنتهى أمر تلك الممالك جميعاً إثر الغزو المغولي الذي إكتسح كل شيء.

في أواسط القرن الرابع عشر ولدت إمارة كوردية مستقلة، وفي مقابل ذلك ظهرت إمبراطوريتان كبيرتان في شرق وغرب كوردستان هما الإمبراطورية الفارسية الصفوية الشيعية والإمبراطورية العثمانية السنية فطمع ملوك فارس في كوردستان وأغاروا بإستمرار على إماراتها لكن الكورد لم يتمكنوا من الإتحاد فيما بينهم ومواجهة الخطر الفارسي، فبادر العثمانيون السنة الى إقتراح إقامة تحالف مع الأمراء الكورد بهدف التصدي لغارات الفرس على أراضيهم فاتفق الأمراء الكورد مع السلطان سليم الأول. وفي سنة ١٥١٤ تمكن الكورد والعثمانيون في معركة چالديران من تحقيق النصر على جيش الشاه إسماعيل الفارسي وعقدوا ميثاقاً بين الأمراء الكورد والسلطان العثماني يؤكد الحقوق الموروثة للأمراء الكورد ويرسخ تعاونهم العسكري مع الإمبراطورية العثمانية، ومن جانبه أقر الشاه إسماعيل بالحقوق نفسها للأمراء الكورد الذين ظلوا تحت نفوذه.

حملات جريئة:

إن وفاء الكورد لميثاق معركة چالديران دفعهم الى المشاركة في حملات جريئة للسلاطين العثمانيين إمتدت من اليمن حتى ڤيينا، لكن دسائس ممثلي الباب العالي جزّأت السلالات الكوردية الحاكمة وأوقعت بينهم العداوة والبغضاء، وفي بداية القرن التاسع عشر إختار العثمانيون اللحظة الحاسمة لإنهاء إستقلال الإمارة الكوردية وإخضاعها للإدارة المركزية.

ومنذ ذلك التاريخ خاضت كوردستان سلسلة من الثورات المتواصلة التي لازالت قائمة حتى أيامنا هذه، وفي نهاية القرن التاسع عشر تأكد السلطان عبدالحميد من عدم فعالية الوسائل العسكرية المستخدمة ضد الكورد فغير خطة الحرب واستبدلها بالدعوة للمصالحة وسمح بتسوية بعض الخلافات، ومن الناحية الإدارية أصبح الولاة يكتفون بالمراقبة العامة للأوضاع تاركين الكورد أحراراً في ممارسة عاداتهم وتقاليدهم الثقافية، فهل كان ذلك البداية لتحالف

أكثر تحرراً وإحتراماً للكورد؟

عرف السلطان الهرم كيف يستطيع من خلال المجاملة إستغلال الروح القتالية للكورد وولائهم للإسلام. وفي عام ١٩٠٨ قامت ثورة الشباب الأتراك بتأسيس النظام الدستوري في الإمبراطورية العثمانية وكان من المتوقع أن ينجز النظام الحديث ما خطط له السلطان عبدالحميد، تنظيم الدولة على أساس يضمن الحكم الذاتي للشعوب غير التركية في الإمبراطورية. لكن الواقع لم يكن كذلك فالحكومة التركية الفتية كانت أكثر إستبداداً وعنصرية من الأنظمة السابقة وكان الأرمن أول ضحاياها تلاهم اليونانيون فالعرب فالكورد. وخلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٥-١٩١٨) تم إبعاد حوالي سبعمائة ألف كوردي، فما الذي جرى لهم؟

لقد أصبحت إبادة العناصر غير المرغوب فيها مبدأ حكومة (الإتحاد والترقي) للشباب الأتراك. وفي نهاية الحرب العالمية لم تكن كوردستان غير ركام وأنقاض يسودها البؤس والموت.

معاهدة تتبعها أخرى:

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها بإنهيار الإمبراطورية العثمانية، وإعلان الحلفاء نيتهم في إعادة رسم خارطة العالم على أساس مباديء ولسن: أن تتصرف الشعوب في حقوقها ويحكموا أنفسهم بأنفسهم.

فأعلن الشعب الكوردي من خلال ممثليه مطالبته بحقه في الإستقلال الذي منحوه فعلاً في العاشر من آب سنة ١٩٢٠ من خلال معاهدة سيڤر (القسم الثالث المواد ٦٢ و٦٣ و٦٤).

لكن لسوء الحظ ظلت معاهدة سيڤر حبراً على ورق بالنسبة للشعب الكوردي، فالمصالح الإستراتيجية والنفطية للدول العظمى فسّرت المعاهدة بخلاف ما كان مرجواً (ولقد رأينا سابقاً أن كوردستان تحتوي كميات هائلة من النفط).

وفي عام ١٩٢٣ تم إستبدال معاهدة سيڤر بمعاهدة لوزان التي تجاهلت الطموحات الكوردية بشكل متعمد. فقسم القرار الدولي الجديد بلاد الكورد بشكل يقضي على آمال الحرية والإستقلال، وعلى النحو التالي: ألحق جزء من كوردستان بالجمهورية التركية التي قامت على أنقاض الإمبراطورية العثمانية، وضم قسم الى سورية وآخر الى العراق، الدولتان اللتان أنشئتا حديثاً من قبل فرنسا وإنگلترا، أما بالنسبة للفرس فقد أعانهم الإنگليز على الإحتفاظ بعناية بالمناطق الكوردية التي كانوا قد إكتشفوا فيها حقولاً غنية بالنفط وتأهبوا لإستثمارها.

تركيا: لايوجد كورد!

أثناء مناقشة مؤتمر لوزان كانت أنقرة قد سعت لتهدئة الكورد حتى أنها سمحت لهم

بصياغة دستور دولة فدرالية تركية-كوردية. لكن بعد التوقيع على معاهدة لوزان لم يتوانَ مصطفى كمال، أحد الشباب الأتراك والذي أصبح رئيس الجمهورية التركية الحديثة، في النكوث بوعوده وإلتزاماته. فأمر بإغلاق المدارس الكوردية وإعتقال الوطنيين والشخصيات المرموقة، وعادت ممارسة أعمال التعذيب والإضطهاد وطبقت إجراءات تعسفية في جميع أنحاء كوردستان فثارت ثائرة الكورد. إلا أنهم ذُبحوا لأنهم محرومون من أي عون أو مساعدة، وبعد قمع الثورات دون شفقة أو رحمة تبنّت حكومة أنقرة نهج إبادة الشعب الكوردي.

ولم تتم الإشارة الى الكورد إلا بعبارة "أتراك الجبال" الشهيرة، وأي فعل يصدر من كوردي يعتبر جريمة لاتغتفر فقد أتخذت الإجراءات ضد كل من تجرأ على التحدث باللغة الكوردية. وكان رئيس الوزراء عصمت إينونو قد قال في جريدة ميلليّت التركية، عدد ٣ آب ١٩٣٠: "الأمة التركية هي الوحيدة التي لها الحق في المطالبة بالحقوق القومية في هذا البلد. ولايحق ذلك لغيرهم أياً كان". وبالرغم من حياة الرعب هذه وسياسة الإبعاد والمذابح الجماعية لم تستطع الحكومات التركية المتتابعة إبادة أو تتريك الكورد، وفي السنوات الأخيرة إزداد الوعي القومي بدرجة كبيرة بين الشباب الكورد بشكل أرغم الجيش التركي على التدخل في الحياة السياسية مجدداً وفرض الأحكام العرفية وإخضاع المناطق الكوردية للحكم العسكري وهناك اليوم أكثر من خمسين ألف كوردي في السجون التي إكتظت بهم لدرجة أن المدارس حولت الى معتقلات فيها المئات من المثقفين الكورد الذين يتعرضون الى التعذيب وجريمتهم الوحيدة أنهم يقولون أنهم كورد ويطالبون بالإعتراف الرسمي بهويتهم القومية.

في العراق: نوع من الحكم الذاتي

كيف يعمل كورد العراق

في عام ١٩١٨ تم إحتلال كوردستان العراق، التي كانت تسمى بكوردستان الجنوب، من قبل بريطانيا العظمى، ولكي يحافظ الإنگليز على مصالحهم النفطية لم يترددوا في ضمها الى الجزء العربي من العراق، وأقاموا دولة موحدة نصبوا الأمير فيصل، وهو من عائلة الملك حسين ملك الأردن، ملكاً عليها، ومع ذلك لم يتم ذلك الإلحاق بدون شروط فقد تعهدت الحكومتان البريطانية والعراقية بمنح الحكم الذاتي للشعب الكوردي وإحترام حقوق هذا الشعب لكن الدولتين نكصتا بتعهداتهما تجاه الكورد مثلما فعل الأتراك، فوجد الشعب الكوردي في العراق نفسه خاضعاً لسياسة الحرمان من الحقوق والإضطهاد الأمر الذي أرغمهم على التمرد فتعاقبت سبع ثورات خلال الفترة بين عامي ١٩١٩ و١٩٤٥ إلا أنها جميعاً تم قمعها بالإعتماد على التدخل الكبير للقوات الجوية الملكية البريطانية لمساعدة القوات العراقية، وآخر الثورات جاءت في عام ١٩٦١ بإشراف الحزب الديمقراطي الكوردستاني وزعيمه مصطفى البارزاني وبالرغم من تدمير البلاد من قبل الجيش العراقي المزود بأحدث أنواع الأسلحة تمكن الكورد من دحر ذلك الجيش والمؤامرات ضد الكورد.

وفي ١١ آذار من عام ١٩٧٠ أوقفت سلطات بغداد أعمالها العدوانية ومنحت المناطق الكوردية نوعاً من الحكم الذاتي. لقد كان ذلك عبارة عن وعود جميلة ومكتوبة... ولكن في الحقيقة بدأت بغداد تراوغ في تنفيذ بنود إتفاقية عام ١٩٧٠ التاريخية نصاً كما تم التوقيع عليها وحاولت إثارة الكورد وفي ٢٩ أيلول عام ١٩٧١ نجا مصطفى البارزاني من محاولة إغتيال دبرها المسؤولون العراقيون. وفي ١١ آذار ١٩٧٤ وبعد محاولات إغتيال عديدة موجهة ضد البارزاني من قبل المسؤولين العراقيين الكارهين للمفاوضات تم إنذار الكورد بقبول حكم ذاتي مصدق عليه من جانب واحد (هو الحكومة العراقية) وإنطلقت القوات الحكومية لتهاجم الكورد.

قاوم الكورد، وخلال أكثر من عام تمكنوا من إحباط الجيش العراقي، وفي هذه الأثناء تقارب شاه إيران، الذي كان يسوي خلافاته مع العراق، مع كورد العراق وفتح حدوده في وجه نساء وأطفال المدن والقرى الكوردية المهدمة من قبل المدفعية والطيران العراقيين. ولما لم يتمكن العراق من إحراز النصر على أرض المعركة حاول الإتفاق مع إيران لضرب الحركة الكوردية، وفي ٦ آذار ١٩٧٥ كان شاه إيران الأخير محمد رضا پهلوي ورجل العراق القوي صدام حسين يتعانقان في الجزائر ويدبران مؤامرة ضد الكورد.

بعد بضعة أيام وفي ١١ آذار ١٩٧٥ أنذر الشاه البارزاني بالتوقف عن القتال وإلا فإنه سيقاتله الى جانب العراقيين، وأمام هذا الأمر الواقع آثر البارزاني إيقاف العمليات العسكرية بدلاً من تعريض شعبه للإبادة، وفي نهاية آذار توجه مع أركان حربه وعائلته وقسم كبير من رجاله (الپيشمرگه) الى إيران التي كانت قد إستقبلت قبلهم مائتي ألف لاجيء كوردي، ونتيجة لذلك إحتل الجيش العراقي معظم أراضي كوردستان ودعا الكورد اللاجئين الى إيران للعودة الى العراق بعد أن تعهّد بمعاملتهم معاملة حسنة وبإعادة بناء بلادهم وتطبيق الحكم الذاتي فيها، وفي هذه المرة ايضاً لم يف العراق بوعوده، فاللاجئون الكورد الذين عادوا الى العراق، وصدقوا أن نية المسؤولين العراقيَين حسنة، تم نفي غالبيتهم الى جنوب العراق كما أن قسماً كبيراً منهم احتجزوا في معتقلات بالصحراء، أما الفلاحون الذين كانوا يعيشون في القرى المجاورة للحدود الإيرانية فقد طردوا من قراهم ونقلوا الى داخل العراق كما تم إعدام المئات من المثقفين الكورد أو ألقي بهم في غياهب السجون.

رغم كل ذلك وفي عام ١٩٧٦ إنتظمت المقاومة الكوردية وبدأت النضال من أجل حكم ذاتي حقيقي ضمن إطار عراق ديمقراطي، وبينما دخل العراق الحرب مع إيران دحر الپيشمرگه وبإستمرار الجيش العراقي الذي كان يتمركز في كوردستان العراق وكانت حرب الأنصار في أوج نشاطها في ظل ظروف صعبة وقاسية جداً.

إيران، جمهورية كوردية:

منذ القرن السادس عشر إنقسم كورد إيران على إمارتين شبه مستقلتين هما إمارة أردلان وإمارة لورستان بالإضافة الى مناطق نفوذ الخانات. كانت تلك الإمارات ترتبط بالسلطة المركزية بتبعية إسمية رمزية وكانت مدن (سنه وكرمنشاه وساوج بلاغ) تشكل المراكز الثقافية والأدبية والفنية الكوردية في تلك الحقبة. وفي نهاية القرن التاسع عشر بدأت أسرة خاجار الفارسية تعمل على تعزيز السلطة المركزية فأنهت الحكم الذاتي الشكلي في المناطق الكوردية الأمر الذي أضطر الكورد في إيران الى حمل السلاح لإستعادة حريتهم والحفاظ على كيانهم.

إندلعت أكثر من عشر ثورات في كوردستان الفارسية (التي تعرف اليوم بكوردستان إيران) قبل الحرب العالمية الثانية، وفي عام ١٩٤١ عندما دخلت جيوش الحلفاء الى إيران وجد الكورد الفرصة ملائمة لتحرير بلادهم من سلطة طهران لدرجة أنهم تمكنوا من إرساء أسس جمهورية صغيرة مستقلة في منطقة مهاباد. لم تتجاهل الدول العظمى هذا التحرك الكوردي، بسبب إهتمام الدول العظمى بهذه المنطقة من العالم، وفي عام ١٩٤٧ ساندت تلك الدول مساعي إيران للقضاء على جمهورية "مهاباد"، حيث قتل رئيس الجمهورية القاضي محمد الى جانب المئات من معاونيه دون محاكمة، وفي عهد الشاه محمد پهلوي حاولت طهران شل الوعي القومي الكوردي من خلال آيديولوجيا الجامعة الإيرانية التي تعتبر مجموع الشعوب الإيرانية، ومنها الشعب الكوردي، أمة واحدة متذرعة في زعمها ذاك بالحقائق العلمية كالتقارب اللغوي بين اللغتين الكوردية والفارسية والعلاقات التاريخية بين الشعبين.

وفي عام ١٩٧٨ عندما باشر الخميني صراعه العلني ضد الشاه ونظامه وعد كورد إيران بالإعتراف بكيانهم القومي ومنحهم حكماً ذاتياً حقيقياً ضمن إطار الجمهورية الإسلامية، لكنه بعد عودته الى إيران منتصراً صرف النظر عن الكورد ومطاليبهم.

وفي صيف عام ١٩٧٩ أرسل جيشه وحرس الثورة (پاسداران) لضرب الكورد الأمر الذي أسفر عن مقتل حوالي عشرة آلاف من النساء والأطفال والشيوخ دون رحمة أو شفقة، لكن مقاومة الكورد ظلت أقوى من أي وقت مضى، وفي مواجهة بسالة المناضلين الكورد قصفت القوات المسلحة الإيرانية بقنابل الناپالم القرى والمدن الكوردية وأخضعت كوردستان الإيرانية لحصار إقتصادي شامل.

أما المثقفون والديمقراطيون الإيرانيون الذين إشمأزوا من إستبداد نظام الحكم فقد تعاطفوا مع المقاومة الكوردية وبذلوا كل ما في وسعهم لمؤازرتها.

سورية: ما من مدرسة ولكن هناك جيش

لحين وصول العسكريين الى السلطة عام ١٩٤٩، كان كورد سورية يرتبطون بعلاقات إجتماعية جيدة مع غالبية السكان العرب في البلد فقد كان هنالك كورد في پرلمان دمشق

وكان هناك موظفون كبار يشغلون مناصب في الحكومة وضباط يخدمون في الجيش. ورغم عدم السماح للكورد بفتح مدارس لهم فقد كان يحق لهم نشر الكتب والمجلات الدورية باللغة الكوردية.

إلا أن كل شيء تغير بعد الإنقلابات العسكرية لاسيما بعد ظهور حزب البعث في الساحة حيث هاجت القومية العربية وبدأت تنتهج نهجاً عنصرياً مستوحى من النازية والفاشية. وبعد عام ١٩٥٨ كان هم الأنظمة المتعاقبة على الحكم في سورية مهاجمة الكورد، فقد فصل الضباط والموظفون والمدرسون والمعلمون الكورد من وظائفهم بلا رحمة، وتم منع نشر أي شيء باللغة الكوردية والكورد الذين خالفوا تلك السياسة تعرضوا للتعذيب الوحشي والسجن لسنوات عديدة ثم تم نفيهم من البلاد، وفي المناطق الكوردية في الجزيرة بدأ تنفيذ مخطط يهدف الى إنتزاع الأراضي من الفلاحين الكورد وإبعادهم الى داخل البلاد.

كما سحبت الجنسية السورية من مئات الآلاف من الكورد وحرم أولادهم من حق التعلم، ولما بلغ هؤلاء الأولاد عديمي الجنسية السن القانونية لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية وجدوا أنفسهم على الفور مجندين في الجيش السوري وتم إرسالهم الى الحدود السورية-الإسرائيلية.

وهكذا في تركيا كما هو الحال في إيران، وفي العراق كما في سورية، وفي الوقت الذي إلتزمت فيه المنظمات الدولية الصمت ولم تحرك ساكناً تحت ستار قداسة ونزاهة الدول الأعضاء فيها، يواصل الشعب الكوردي نضالاً شاقاً ومريراً من أجل حقوقه دون مساعدة أو مساندة.

الأدب الكوردي

اللغة الكوردية:

يتكلم الكورد، كأجدادهم الميديين لغة هندو-أوروپية هي نفس اللغة التي كتب بها كتاب زرادشت (آڤيستا) وتنحدر هذه اللغة من فرع (زند- اللغة الزرادشتية) من المجموعة الإيرانية، في حين أن اللغة الفارسية القريبة جداً من اللغة الكوردية تنحدر من العائلة (المذرية) وتؤكد بعض الأمثلة أن اللغة الكوردية حافظت على روابط متينة مع اللغة السنسكريتية وتبرز قرابة شديدة مع اليونانية واللاتينية بالإضافة الى اللغات الجرمانية:

كوردي	لاتيني	ألماني	إنگليزي	فرنسي	عربي
پدر	مادر	فاتَر	فاذر	بير	أب
مادر	ماتر	موتر	مادر	مير	أم
برادر	فراتر	برودر	برادر	بزير	أخ

كما يمكن أن نجري دراسة مقارنة على أجزاء الكلمة الكوردية (ژين) التي تعني الحياة، والكلمات اليونانية واللاتينية والفرنسية المستعملة اليوم مثل: ژونيسيس وژونوس التي تعني

مـورّثة (جين) علم الأنسـاب ونسل وتكوّن وكلمات أخرى. وكذلك على الكلمـة (ژن) التي تعني إمرأة أو زوجة وتقابلها في الروسية كلمة ژونا. والكلمتان الفرنسيتان اللتان تعنيان علم أمراض النساء تعودان الى أصل يوناني-لاتيني.

إن اللغة الكوردية كلغة مركبة تقدم تسهيلات كبيرة لإستحداث أسماء وأفعال وصفات جديدة، يقـول (ر. ليـسكو): "إن الإبتكار العـفـوي والعلمي للألفـاظ الجديدة يسـمح للغـة الكوردية بالتطور مع مرور الزمن والتعبير عن المعاني المجردة التي تأتي بها الحضارة الحديثة بإستمرار".

إن تقسـيم كوردسـتـان منع الشـعب الكوردي من توحـيد لغـتـه ومع ذلك فـهناك لهـجـتـان رئيسـيـتـان سائدتان همـا: اللهـجة الكرمـانجـيـة التي يتكلم بها الكورد في تركـيـا والإتحاد السوڤيتي وسورية والمناطق الشمالية من كوردستان إيران والعراق، واللهجة السورانية التي يتحدث بها الكورد في جنوب كوردستان العراق وكوردستان إيران، ومن الطبيعي أن تحتوي اللهجتان العديد من المتغيرات كما هو الحال مع جميع الشعوب الجبلية، لكن الكتابة هي فقط باللهجتين الكرمانجية والسورانية.

أبجدية صوتية:

كان الميديون ومن بعدهم الفرس والساسانيون يستخدمون أبجدية مسمارية توافق اللغة الهندو-أوروپيـة وتكتب من اليـسار الى اليـمين، لكن العرب بعد فتوحاتهم طمسوا حضارة وثقافة الشعوب الإيرانية وفرضوا عليهم لغتهم وعقيدتهم ايضاً، في وقت تمالك فيه الكورد أنفسهم محاولين الحفاظ على لغتهم من الهيمنة العربية، ولم يكن أمامهم بد من إقتباس الحروف العربية الى لغتهم وبعد ذلك قلدهم الفرس ثم إتبع الأتراك الطريقة نفسها.

وبالرغم من الصعوبات التي تظهرها الأبجدية العربية في تقبل اللغات الهندو-أوروپية فإن الكورد إستخدموها لقرون طويلة ولازالوا يستعملونها في العراق وإيران، أما الكورد في سورية وتركيا فيستخدمون منذ أربعين عاماً أبجدية وضعها مثقفون كورد في مقدمتهم الأمير جلادت بدرخان وهي عبارة عن أبجدية صوتية مبسطة سهلة التعلم والإستعمال، وقد تم طبع الكثير من المؤلفات بهذه الأبجدية وبشكل سري في الغالب. واللهجة الكرمانجية تدرس بهذه الأبجدية في مدرسة اللغات الشرقية بپاريس وفي جامعة (إيزالا) في السويد بينما آثرت جامعات بغداد وأكسفورد وبرلين وواشنطن التي تدرس اللهجة السورانية الأبجدية العربية، لكن نزعة إستخدام الأبجدية اللاتينية تزداد يوماً بعد يوم، وقد تم نشر القاموس الكوردي-الانگليزي لمؤلفه توفيق وهبي باللهجة السورانية في بريطانيا بالأحرف اللاتينية.

هل هناك أدب كوردي؟

قبل الإحاطة بالأدب المدوّن والمكتوب لابد أن نلقي نظرة على التراث الشعبي (الفلكلور)

هذا التراث الفني جداً الذي يمكن أن نتحدث عن إنتشاره السريع من خلال ما كتبه العالم **اللغوي الكوردي (أ. ڤيلچفسكي):**

النزعة الإنسانية ورزانة الأقوال المأثورة:

لقد تأثر الكثير من العلماء المهتمين باللغة الكوردية بتنوع الأدب الشعبي الكوردي واهتموا به إهتماماً بالغاً ومنذ أمد بعيد جمعوا ونشروا مستندات هامة عنه، ومن بين هؤلاء البولوني جابا، والألماني بيرم سوسان فان، والروسي نيكيتين، والفرنسي ليسكو، والإنگليزي ماكنزي. وفي السنوات الخمسين الأخيرة قام الكورد ايضاً بهذه المهمة وأنجزوا أعمالاً مثيرة للإهتمام.

إن ثراء التراث الشعبي الكوردي يظهر أولاً في الأقوال المأثورة والأمثال والألغاز والأغاني والأساطير الملحمية. إن الأقوال الكوردية المأثورة كثيرة ومثيرة للإعجاب لأن على الإنسان الكوردي أن يبيّن ويدعم كلامه بالحكم والأمثال المناسبة الموزونة والمفعمة بالحكمة والإنسانية والواقعية والدعابة ايضاً، مثل:

١- من يجلس قرب الحداد يتعرض للشرر.

٢- الأسد أسد ذكراً كان أم أنثى (الأسد أسد ولو كان أنثى).

٣- عندما تتقاتل الجمال تسحق البغال والحمير تحت أقدامها.

٤- الدنيا وردة، شمّها وأعطها لأصدقائك.

كذلك فإن الأغاني الكوردية لاتعد ولاتحصى وهي متنوعة كما يقول (ت. بوا):

"في الريف وأثناء العمل، يدوي غناء الفلاح وبائعة اللبن والحاصد والحائك والأم. إن أناشيد الحب أو الحرب، أغاني مأساوية أو أغنيات راقصة لاتغادر شفاه الراعي أو مدبرة شؤون المنزل".

والترنيمة التالية عبارة عن حوار بين فتاة جميلة وصائغ طلبت منه الفتاة أن يرصع لها وردة ذهبية (في بعض مناطق كوردستان تزين النساء مناخيرهن بهذه الوردة الذهبية):

- يا معلم حنا، إصنع لي وردة ذهبية

لاتفتلها بالملقط

ولاتضعهاعلى السندان

ولاتضربها بالمطرقة

وبقدرة الله لن تندم على ذلك!

- سأصنع لك وردتك الذهبية

دون وضعها على السندان
ولا فتلها بالملقط
ولاضربها بالمطرقة
وبقدرة الله لن أندم على ذلك
إن أعطيتني قبلتين
- لابأس، إعتبر قبلاتي بلا ثمن
إن أعطيتني بدلاً عنها:
سبعة قطعان من النعاج
وسبعة قطعان من الماعز ذي الوبر المجعد
سبع قطع من الأرض
سبع طواحين
سبع معاصر تديرها الحمير
سبع فناجين من لبن العصفور
إنها رخيصة بلا ثمن

الأدب المدوّن:

بالرغم من عظمة تراث الشعب الكوردي وتاريخه المأساوي، فإنه أنشأ أدباً مكتوباً قيّماً وأنجب كتاباً وشعراء ذوي صيت عالمي، فكان منهم الرواة والقصاصون والروائيون وكتاب السيَر والرحالة وآخرون.

وبسبب تقسيم كوردستان فقد كتب كثير من الكورد باللغات العربية والتركية والفارسية واحتلوا مكان الصدارة بين شعراء وكتاب هذه الشعوب. فأمير الشعراء أحمد شوقي الذي توفي في مصر كوردي، وجامي الذي يعد من كبار شعراء الفارسية كوردي، وفيزولي الذي يمجده الأتراك على أنه أحد كبار شعرائهم كوردي ايضاً، والكاتب محمود تيمور الذي كان من الروائيين القلائل الذين كتبوا بالعربية وترجمت أعمالهم الى اللغات الأوروبية كوردي.

إستطاع العرب فرض عقيدتهم والقواعد المعقدة لشعرهم على الشعوب الإيرانية وقد خضع الشعر الكلاسيكي الكوردي ايضاً الى تلك القواعد حتى القرن التاسع عشر عدا بعض الإستثناءات، فاستخدم بعض الشعراء مقاطع من أربعة أو خمسة أبيات في حين آثر البعض الآخر من الشعراء الفصل واستعمال العروض في الأغاني الشعبية الكوردية، وأخذ الشعر منذ القرن التاسع عشر شكلاً أكثر غنائية وظهر على شكل خيال مبدع من ناحيتي الشكل

والمضمون على حد سواء. أما بالنسبة للشعراء المعاصرين فلايتبعون أية قاعدة ثابتة بل يعلقون أكبر الأهمية على محتوى وإيقاع مؤلفاتهم.

شعراء صوفيون وقوميون:

كان على الشعراء الكلاسيكيين أن يحترموا قواعد الشعر العربي ويمجدوا عبادة الله بروح صوفية شرقية، لكنهم لم يكونوا على وتيرة واحدة وتأثرت أشعارهم بالمذهب الواقعي وحب الطبيعة والمشاعر الوطنية وردود الفعل ضد الإستبداد والظلم الإجتماعي. وبعد الفتوحات الإسلامية كان أول من ألّف شعراً بلغته الأم هو بابا روخ همداني الذي توفي عام ٨٤١م، فدعا الشعب بشيوخه وشبابه الى:

حمل أسلحة باترة

ومهاجمة العدو كالأسود

والإنتصار عليه

لتكون بلاد الكورد

ربيعاً خالداً

مزدهراً وزاهياً

وكان الشاعر بابا طاهر همداني (٩٣٥-١٠١٠) ثائراً ضد الظلم الإجتماعي والموت، ورأى أن من غير المعقول أن يعاني الإنسان من كل الآلام المتوقعة لتزيين العالم ليخطفه الموت فيما بعد:

لقد شقي الفلاح على هذه الأرض

وزرع فيها وروداً من دموعه

وبذر فيها الحبوب

أملاً بجمع المحصول

ولكن المنية داهمته

قبل أن يجني ثماره

ويعد الملا الجزيري (١٤١٧-١٤٨١) الذي عاش في إمارة بوتان المستقلة من كبار الشعراء الصوفيين والفلاسفة الوجدانيين، لكنه شعر بأنه حزين من عظمته فقال:

أنا وردة فردوس بوتان

أنا مشعل كوردستان

في البلاغة أنا ملك

أغني الحب
وأريده للناس أجمع
لهذا أنا مغتم ومفعم بالآلام

أما أحمد الخاني (١٦٥٠-١٧٠٦) فهو نبي القومية الكوردية ومؤلف رواية روميو وجوليت الكوردية (مم وزين)، يندهش الشاعر في مقدمة هذا المؤلف العظيم الذي يبلغ مجموع أبياته ألفين وسبعمئة بيت من أن الكورد لازالوا بلا وطن يجمعهم كلهم مع أنه يعتبرهم أرفع منزلة من الشعوب التي تهيمن عليهم فيقول:

أفوض أمري الى حكمة الله
والكورد في الدنيا
لمَ حُرموا من حقوقهم؟
لمَ يُضطهدون؟
بجرأتهم العظيمة
فتحوا مدينة الشهرة
واحتلوا أقطار المجد
كل أمير من أمرائهم حاتم (وهو بطل عربي اشتهر بكرمه)
كل رجل فيهم في ساحة الوغى رستم (وهو جبار الشعوب الإيرانية)
أنظر، بدءً من العرب وحتى الجورجيين
كلهم كورد مثل قلعة
حاصرها هؤلاء الأتراك والفرس
من الجهات الأربع في آن واحد
وجعل المعسكران الشعب الكوردي
هدفاً لسهم القدر

ويحث الشاعر الكورد على التوحد لأنهم من خلال تحالفهم سوف يتمكنون من أن:
يهيمنوا على الأتراك والعرب والفرس
يؤسسوا دولة مثالية
يحملوا العلوم والفنون الى ذروة الكمال
ويحبهم كل الناس

ويذكر علاءالدين سجادي في كتابه (تاريخ الأدب الكوردي) الذي نشر باللغة الكوردية في بغداد عام ١٩٥٢ أكثر من مائتين وخمسين شاعراً، من بينهم عشر شاعرات.

وفي كتابه "إقرار خطيبة" يقول جاسم جليل، وهو من كورد أرمينيا السوڤيتية:

أنا وردة برية
لازال برعمي مغلقاً
الشمس والندى ألقيا عليّ نورهما
إن لم تلمسني
فلن أتفتح
إن لم تلمسني
فلن أفوح بالعطر
أنا وردة الجبال
حاشاك!
يتفتح الحب بمداعبات:
رطّب بحبك أرض جذوري
إن لم تلمسني
فلن أتفتح
إن لم تلمسني
فلن أفوح بالعطر
أنا وردة برية
أنا وردة الجبال
حاشاك!
أيها البستاني النشيط، يا عاشق الوردة
تعال: أقطفني، خذني فوق الجبل........... (١٩٦٠)

الهوامش

١ - أبدى الرحالة التركي الشهير في القرن اسادس عشر (أوليا چلبي) إعجابه برؤية كورد منطقة بتليس وهم يسيرون بحرية على الثلج الطري بواسطة نعال الثلج.

٢ - كان العثمانيون قد دخلوا كوردستان في بداية القرن السادس عشر إثر إتفاق بين الأمراء الكورد المستقلين وبين السلطان سليم الأول.

٣ - الحركة القومية الكوردية: تأسست في نهاية القرن الماضي، ولم تكن تستطيع الظهور بحرية إلا عام ١٩٠٨ بعد أن وضعت الإمبراطورية العثمانية لنفسها نظاماً دستورياً حراً. وشهدت السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى ولادة أول التنظيمات الطلابية الكوردية منها (هيڤي) وبعض الصحف. وأدت حرب عام ١٩١٤ الى إيقاظ هذه الحركة التي كانت تشتد كل يوم وجُند معظم الطلاب الكورد كضباط في الجيش العثماني على حدود الدردنيل والقوقاز.

٤ - أشجار الحور البيضاء: وهي الكائنة في مكان رطب ومروي جيداً ولاتحتاج إلا الى عشر سنوات لتصبح جذوعاً تسد حاجات النجارين.

٥ - التوت الأبيض: تشبه حبات الرز الإيطالي المطبوخ. كانت هذه الثمار نادرة في ذلك العصر، وكان هناك إحتفال حقيقي أثناء قطافها وبيعها. وكان قسم من هذه الثمار يُجفف تحت الشمس، وفي الشتاء وبالإضافة الى اللوز والجوز، كانت ثمار التوت تشكل فاكهة لذيذة وتمد المرء بطاقة حرارية كبيرة. وكان يُصنع منها وهي مطهية ومعجونة باللوز المسحوق نوع من البسكويت.

٦ - گاوران: سهل مطوق ومحمي من البرد القارس بواسطة الجبال المحيطة به. وهذا السهل هو المكان الوحيد في شمال كوردستان الذي تستطيع حيوانات الصحراء (المجترة) أن تعيش فيه. وفي كوردستان إيران، في مناطق (سنه وكرماشان) تُربى الجمال.

٧ - أوسمانلي: خلال قرن لم يخطر على بال أي كاتب تجميد ما يكون تركياً. وكان التركي هو رجل الريف المسكين، الرجل الفظ الجاهل. إن شعور الإنتماء لإمبراطورية أكثر من الإنتماء القومي سيطر بقوة حتى منتصف القرن التاسع عشر. وإعتباراً من هذا التاريخ، تأثر الشباب الأتراك الذين كانوا يكملون دراساتهم في أوروپا، بأفكار الثورة الفرنسية والقومية والشوفينية.

٨ - إخوتي الأعزاء: وهي الرسائل التي بعثها مصطفى كمال الى الأغوات والى بعض الشخصيات الكوردية منشورة باللغة التركية في مذكراته. وحينما قُمعت الثورة الكوردية، إنقلب مصطفى كمال ضد معاونيه الكورد وحاول إبعادهم، فأوقف بعضهم وأعدموا شنقاً وإستطاع آخرون الفرار من الملاحقة واللجوء الى سورية.

٩ - كوردستان: شاهد مأخوذ من كتاب هـ.س.آرمسترونگ (الذئب الرمادي).

١٠- النار الحمراء قرب مدياد: أنقذت طفلة عمرها عشرة أعوام وتدعى (گوليزار ره شو) ظلت تحت جثث الضحايا. وبعد رحيل الجنود نجحت في الخروج من ركام الجثث وسارت على الأقدام ليلاً ونهاراً حتى وصلت الى قرية كوردية تدعى (دووگر) في سورية. هذه الفتاة التي أصيبت

برضوض في هذه المجزرة، وكانت ترتعد كلما سُئلت عن هذه الحادثة.

١١- كان المحامون والأطباء وعلماء اللاهوت مذنبين لأنهم إنخرطوا في التنظيم الطلابي الكوردي (هيڤي) المؤسس قانوناً في إستانبول عام ١٩١٠، أو لأنهم أظهروا مشاعر قومية كوردية وأعلنوها في وضح النهار.

١٢- إن عدم إلتزام أخي الأكبر لم يكن يعني إنه مجرد من الشعور الوطني أو القومي، فقد كان يحترق رغبة في تحطيم الأغلال التي كانت تخنق الشعب الكوردي وتهدد كيانه، ومع ذلك فهو هاديء الطبع ورزين، وتأثر بوالدي جداً، وكان يتلمس طريقه وبما إنه كان طبيباً أراد أن يقاوم برصانة البؤس الجسدي والمادي والمعنوي لشعبه. كانت قوميته تكمن في الإصغاء لمرضاه والتحدث إليهم بلغتهم عن أمراضهم وأحزانهم وحرمانهم.

١٣- ريزو: وهو إسم مستعار لشقيقي الثاني الذي لايزال يعيش في كوردستان تركيا.

١٤- بعد عشرين عاماً علمت إنهم كانوا قد أعدوا خطة لخطف السجناء وتحريرهم من براثن محكمة الإستقلال، ولكن هذه الخطة أُعيقت بأسراع السلطات التركية بالوصول الى (إيلازيغ) بالرغم من قساوة الطقس وحالة الطرقات السيئة وإرهاق السجناء الذين أُجبروا على السير ليلاً دون توقف في قرية (مادن).

١٥- حتى اليوم هناك في تركيا قانون يعاقب بالسجن عامين الى خمسة أعوام كل شخص ينتقد ويشتم مصطفى كمال الذي مات عام ١٩٣٨.

١٦- إذا كان قسم كبير من الجبال الكوردية قد تعرّى من الأشجار اليوم، فإن الماعز تتواجد فيه عبثاً، وإن شجرة الجوز هي إحدى الأشجار النادرة التي تُدخر أوراقها من قبل الماعز وذلك بسبب طعمها المر، وبالمقابل فإن شجرة الصفصاف محببة جداً الى الماشية.

١٧- غسل الأموات: يتم هذا الغسل على لوح خشب يعرف بإسم (تانازير - تاناشيد) والميت الذي يُمدد يُصوبَن ويُغسل بالماء الساخن كما لو كان حماماً عادياً. وبعد ذلك يُغلف الجسد بكفن ثم يوضع في النعش.

١٨- العادة الكوردية: في اليوم الثامن، ينتهي عزاء المحزونين فيساعدون في العودة الى نشاطاتهم اليومية، ولكن الحداد لاينتهي بهذا، فهو يدوم مبدئياً أربعين يوماً. وفي ليلة الأربعين تجهز عائلة الفقيد كمية كبيرة من الحلاوة (أنظر الى المصطلحات) وتغلفها بالخبز الذي يسمى (بورق المحفظة) لأنه رقيق جداً وتوزعها على كل الذين جاؤوا لتقديم تعازيهم. وفي بعض مناطق كوردستان، ظلت التقاليد أكثر حيوية مما هي في مادن. حيث يُرى فيها نسوة يرتدين السواد سنة كاملة، وفي مناطق أخرى، يُعيّد الميت كما يُحتفل بالمولود الجديد. وخلال فترة تتراوح بين أسبوع وأربعين يوماً، يأتي الموسيقيون الذين يعزفون على الطبل والزرناي (أنظر الى المصطلحات)، ليؤدوا ألحاناً مرحة في الرقصات والرقص الدائري الشعبي وذلك ليلاً ونهاراً. وتتزامن هذه الحفلات والرقصات مع ولائم مستمرة. إن سبب هذه الأفراح يُفسر بالإعتقاد بحياة أبدية للجميع

والإقتناع بأن الموتى يجب أن يدخلوا في هذه الحياة الجديدة بإستبشار وفرح.

١٩- أرغم على العودة الى الإيرانيين مع قسم من رجاله وعاش تحت الإقامة الجبرية في طهران، ولم يحصل على خبزه اليومي إلا من أعمال التطريز ومن دروس زوجته وهو مؤلف كتاب عن التاريخ الكوردي بالفارسية.

٢٠- في سورية العثمانية القديمة الواقعة غرب نهر الفرات، كانت فرنسا (التي تمارس إنتدابها منذ عام ١٩٢٠) قد ضمت بلاد مابين النهرين الشمالية، أو الجزيرة. وهذه الجزيرة كانت تسكنها الأغلبية الساحقة من الكورد والحضريين الذين سكنوا على طول الحدود وكذلك بعض القبائل العربية البدوية التي تعيش على تربية الأغنام والإبل. ففي السنة التي كانت الأمطار فيها غزيرة كان عشب هذه الأراضي الخصبة لاينضب، وكان لكل قبيلة ما يكفي لتغذية قطعانها. ولكن لوكانت الأمطار نادرة، وهذا ما كان شائعاً في منطقة البدو أكثر من منطقة الكورد، كان يجب سكب الدماء لإيجاد المراعي للحيوانات أوالقبيلة الأكثر عدداً أو الأكثر قوة كانت تستطيع دوماً الإستيلاء على أراضي الأكثر ضعفاً وتطردهم الى مناطق بعيدة جداً في الجنوب. وفي عهد العثمانيين كانت إحدى قبائل البدو تخضع أحياناً للأخريات وتنشأ قوة تهاجم الأراضي المزروعة لكورد المنطقة الشمالية، وكان السلاطين الأتراك قد جعلوا من الحرب الدائمة أحد الأسس الرئيسية لإدارتهم. إن السلطان عبدالحميد (السلطان الأحمر) هو الذي جعل ذلك فناً كاملاً. وكان قد أصدر لقب (باشا) لثلاثة أسياد من المنطقة: إثنان منهم كورد وهما إبراهيم علي ومصطفى ميران، والثالث عربي هو هادي الشمري. ونجح في الإثارة بينهم. بعد تأسيس الفرنسيين لسورية. لم يغيروا التنظيم القبلي لمنطقة الكورد. والعرب، إحترموا وبجلوا زعماء القبائل الذين تعاطفوا معهم ولكنهم لم يثيروا نزاعات مسلحة بين هذه القبائل إلا نادراً. وكان لتقسيم الإمبراطورية العثمانية عواقب وخيمة على الكورد بصورة عامة وكورد الجزيرة بصورة خاصة. فكانت القبائل، إضافة الى عائلات كاملة، تقسم الى قسمين وحتى ثلاثة ممزقة بين تركيا والعراق وسورية.

٢١- والذي لم يكن قد علم برحيلنا. وبعد سنوات علمنا إنه كان قد تأثر تأثراً كبيراً بهذا الحدث. "أخيراً لم يكن يتوقف عن التكرار وهو شديد الحزن فيقول: رحل الكبير، حسناً، ولكن هذا الصغير لماذا أصطحبه معه؟". ومات بعد ذلك بعامين.

٢٢- نظام الدين كيبار: هذا الجورجي العثماني الذي كان موظفاً كبيراً في الإمبراطورية العثمانية، كان في الماضي يدخل الى بلاط إستانبول ويخرج منه، وكان ضد الكماليين بشراسة. هرب من إستانبول عام ١٩٢٤ مع إبن أخيه (ممدوح سليم) قبل دخول قوات مصطفى كمال بقليل. فأبحر الإثنان على متن قارب إنگليزي، وذهب الى مصر أولاً ثم الى لبنان ومن هناك الى سورية.

٢٣- الحي الكوردي: أسسه العظيم صلاح الدين، وعرف كيف يفرض نفسه خلال قرون على دمشق وضواحيها، وخلال فترة الإمبراطورية العثمانية، دُلل البطل وإستُخدم لقمع المناطق المناهضة مثل

جبل الدروز وحوران.

٢٤- الأمير جلادت بدرخان: في عام ١٨٤٦، كان الباب العالي قد أنهى إستقلال إمارة عائلة بدرخان ونفيت كل العائلة الأميرية الى جزيرة (كريت)، ومن هناك الى إستانبول حيث أراد السلطان عبدالحميد أن يتصالح مع الكورد، ومنح لقب (باشا) للأمير الكوردي بدرخان وقلد كل ولد من أولاده الأربعين منصباً هاماً. وحاول أحفاد بدرخان أن يستعيدوا الإمارة ولكنهم لم يفلحوا وأدت هذه المحاولة الى مقتل العديد منهم، وعاد آخرون ومنهم جلادت وكاميران الى أوروپا حيث درسوا فيها وحاولوا أن يرهفوا إحساس الرأي العام العالمي حول القضية الكوردية.

٢٥- أكرم وقدري جميل باشا: أرسل إبنا العمين كضابطين الى جبهة القوقاز وجبهة (غزة) ولكن الإنگليز أوقفوا قدري ثم حُكم عليه بالسجن مدة عام في معسكرات مصر. بعد ثورة عام ١٩٢٥ الكوردية، أوقف إبنا العمين بالإضافة الى أخي، ومثلوا أمام محاكم الإستقلال الخاصة وحُكم عليهم بالسجن لمدة خمسة أعوام. وأخيراً أُعفي عنهم بعد عامين من الإعتقال في سجون شواطيء البحر الأسود. وحينما عادوا الى بيوتهم، كان الوضع لايُطاق فآثروا اللجوء الى سورية.

٢٦- قبيلة هرڤيكان: وهي تحتوي على كورد مسلمين وإيزيديين ومسيحيين (سريانيين)، ولكن هذه القبيلة كانت مقسمة وممزقة بعادة الأخذ بالثأر كجميع العائلات الكوردية الكبيرة.

٢٧- حاجو آغا: حتى عام ١٩٢٥ لم تقترب السلطات العثمانية ولا الكمالية أبداً من منطقة مدياد وسمحت لحاجو بأن يهتم بقبيلته بحرية وفي عام ١٩٢٥، أثناء هيجان الكورد نجح مصطفى كمال في خيانة حاجو الذي أرسل قواته الى جانب قوات الشيخ سعيد. وبعد عام من إعادة السلام الى كوردستان، عاد أتاتورك ضد الزعماء الكورد الذين كانوا قد ساندوه ونجح حاجو في اللجوء الى سورية حيث منحه الفرنسيون عشرات القرى بالإضافة الى أقساط شهرية منتظمة. وفي عام ١٩٦٣، وبعد وصول البعث الى السلطة، حُرم تقريباً كل الملاكين الكورد من أراضيهم وخيراتهم.

٢٨- الفرنسيون: أعطوا وعوداً نسبية لتوسيع الحريات وإحترام الحقوق القومية، وتخلى علي آغا زلفو عن الكفاح المسلح لينظم الى الجبهة الوطنية.

٢٩- القرميد الخام (الكلبيج): في هذه المنطقة السهلية الفقيرة بالحجارة بصورة عامة، حيث تبلغ درجة الحرارة فيها صيفاً (٥٠) درجة في الظل، يشكل القرميد الخام مادة البناء المثالية ويمكن إنتاجه بكثرة وإستُعمل من قبل كل الحضارات العريقة التي سكنت بلاد ما بين النهرين مثل الحضارة السومرية والأكادية والميتانية (الكوردية) والبابلية والآشورية وحضارات أخرى. ويُصنع من تراب المنطقة والتبن والماء، والكتلة الحاصلة توضع في قالب خشبي مستطيل، ثم تُجفف تحت الشمس. والبيوت المبنية بهذه القراميد تُقام في مستوى الأرض وسط مساحة واسعة. وفي القرى التي لايكون الماء فيها على عمق كبير، نجد بئراً وسط هذه المساحة. ولكن في القرى التي تتطلب حفر بئر حتى عمق (١٠٠) متر للوصول الى الماء، فإنه لايُحفر إلا بئر واحد لكل قرية،

حبل طويل مربوط بالدلو يجره بغل، أو جمل تقوده إمرأة أو إثنتان بصورة عامة. ومنذ بضع سنوات، كانت هذ العملية تُجرى غالباً بواسطة مضخات تعمل بمحركات الديزل.

٣٠- بمكننة الزراعة، إختفت الغزلان شيئاً فشيئاً من هذه المنطقة ولانعثر عليها إلا في المناطق التي لاتصلح الأراضي فيها للزراعة ولاسيما في الصحراء الممتدة من شرق دمشق الى الحدود العراقية. وكان قسم كبير من تلك الغزلان فريسة متحمسي الصيد.

٣١- كانت قامشلي حينئذ بلدة كبيرة يسكنها حوالي (٣٠) ألف نسمة، محرومة من الكهرباء والمياه الجارية والقنوات. وكان الكورد والسريان والأرمن والعرب واليهود والكلدان والآشوريون وآخرون يعيشون فيها جنباً الى جنب. وكان الأرمن (البشيريون) يسكنون في حي خاص بهم. وكان يُقصد بالأرمن قبيلة كوردية في تركيا، مستكردة تماماً ولاتتكلم سوى الكوردية وتردي الزي الكوردي وتعيش في جو كوردي بحت، لكنها تدين بالديانة الأرمنية من طائفة الأرثوذوكس. وكانت الكتب المقدسة لقساوستهم مكتوبة باللغة الكوردية ولكن بالحروف الأرمنية. وكانت الأحزاب السياسية الأرمنية تبذل جهوداً جبارة لتعليم اللغة الأرمنية وإبعادهم عن تأثير الثقافة الكوردية.

٣٢- في الحقيقة وبعد بضع سنوات ستكشف شركة فرنسية النفط فيها ولكنها لن تستثمره وبعد ثلاثة عقود إستطاعت سلطات دمشق بمساعدة خبراء سوفييت أن تستخرج الذهب الأسود (النفط).

٣٣- عين ديوار: وهو مكان ديني إسمه العربي الكوردي (نبع الجدار) بسبب تدفق الماء الى أسفل هضابه.

٣٤- اللغة الأرمنية: كان شقيقي يعرف الأرمنية أيضاً لأنه أثناء السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، كان تعليم الأرمنية مكتوباً في منهاج المدارس الثانوية في الإمبراطورية العثمانية.

٣٥- الفولكلور: إن الفولكلور الكوردي غني وحافل سواء كان في مجال الرقص والموسيقى أو الشعر. ولقد إستوحى منه المؤلف الموسيقي الأرمني (آرام خجادوريان) بشكل كبير ليشكل (الباليه) (گايانه) ومنها بعض الألحان (رقصة الكورد) و(رقصة الشباب الكورد) و(رقصة الهدهدة لتنويم الأطفال) التي تكون كوردية بشكل نموذجي.

٣٦- الجمعيات الأخوية الدينية: هذه الجمعيات التي دخلت الى الإسلام مؤخراً ومنها القادرية والنقشبندية، تأصلت بقوة لدى الكورد. وكانت لهذه الطوائف سلطة روحية مطلقة على تلاميذها (المريدين والصوفية). وإذا حاول البعض منهم أن يقوموا بدور المحرّر في تاريخ شعبهم مثل الزعيم الشهير شيخ سعيد من (پيران)، فإن معظمهم بذلوا جهودهم في إبقاء الشعب في حالة جهل وخضوع.

٣٧- هاوار: وهي الصحيفة الكوردية التي تعني (النداء)، لم تظهر إلا عام ١٩٤١، لدى وصول

الإنگليز الى سورية. وكان الأتراك في هذه الآونة يميلون الى جانب الألمان وساند الإنگليز الأمير (جلادت بدرخان) في إعادة نشر الصحيفة الدورية الكوردية.

٣٨- علمنا مؤخراً أن السلطات الفرنسية كانت تنوي إبعاد شقيقي ولكنها تخلت عنه نتيجة إحتجاج وجهاء جميع طوائف قامشلي. ومع ذلك وبما إنها لم تستطع أن تقبل إدانة السياسة الفرنسية في سورية، فقد قررت اللجوء الى أناس سيئي الأخلاق لإقصائه بلاقيد ولاشرط.

٣٩- علي يونس: كان قد بدأ المعارك ضد الأتراك عام ١٩٢٥ بالتعاون مع أبنائه الستة الذين كانوا يقودون جبهات مختلفة وبموته المفاجيء أثناء إحدى المعارك، خلفه إبنه الكبير عبدالرحمن. وفي عام ١٩٣٨، وبإصرار من حكومة أنقرة، حاولت السلطات الفرنسية تسليمه الى الأتراك، وأخيراً سُمح ليونس بالبقاء في سورية والعودة الى الجزيرة حيث مات عام ١٩٥٦، وهو تواق لجبال ساسون وكئيب لرؤية شعبه مجزءً وتحت هيمنة الغير.

٤٠- إبنة مصطفى كمال المتبناة (صباحت) التي كانت طيارة تبجحت أثناء المقابلات الصحف التركية ومنها صحيفة (جمهوريت) في أنها حلقت على إرتفاع منخفض وأطلقت نيران الرشاشات على الأطفال الذين كانوا يبحثون عن ملجأ في الجبال.

٤١- نوري ديرسملي: نشر قبل بضع سنوات كتاباً ذاع صيته وسط شباب كورد تركيا وهو (ديرسم في تاريخ كوردستان).

٤٢- بالرغم من نتيجة الإستفتاء العام الذي أجرته عصبة الأمم، كانت فرنسا قد تخلت بعد عام واحد عن لواء الإسكندرونة لتركيا وسببت في وضع عشرات الآلاف من العرب والكورد والأرمن والشركس وجهاً لوجه مع الجيش التركي. وبعد ضم لواء الإسكندرونة أصبح إسمه (هاتاي) وأصبح مقاطعة تركية حيث كانت أنطاكية مركز محافظتها. في هذا الوقت كان (ممدوح سليم) مدرس الأدب التركي في ثانوية أنطاكية وممثل الكورد لدى لجنة عصبة الأمم، يناضل ليبقى هذا اللواء مقاطعة سورية، فأخذ طريق المنفى وجاء ليستقر في دمشق.

٤٣- (PDKS) : هو الحزب الذي أسسته وكنت رئيسه الأول، يتابع نشاطه اليوم سراً بالرغم من أعمال التعذيب للأنظمة المتعاقبة وبين ألف صعوبة وصعوبة.

٤٤- مدارس (كتاتيب): تكون الكتاتيب لدى الكورد عبارة عن مدارس عبادة ومدارس فقهية وليست مدارس عادية. وكانت أشهر هذه الكتاتيب موجودة في عامودا، حيث كانت الدراسة تدوم فيها إثني عشر عاماً. وبالإضافة الى الفقه الإسلامي، كان يُدرس فيها الأدب العربي والفارسي، وكانت دراسة الرياضيات تحتل فيها مكاناً كبيراً، بينما العلوم الأخرى كالكيمياء والفيزياء وعلم الأحياء لم يكن يُهتم بها إلا نادراً. وكانت الكتاتيب تلعب دوراً هاماً في الحياة الثقافية الكوردية، وكوّنت رجالاً علامة، منهم شعراء وأدباء رفيعي المستوى، والشاعران (ملاي جزيري) و(أحمدي خاني) هما الأديبان الخالدان للأدب الكوردي اللذان تخرجا من هذه الكتاتيب التي كانت منتشرة جداً في جميع أنحاء كوردستان. كانت هذه الكتاتيب بإدارة رجل علامة

بصورة عامة، وكان الشعب يعين هذه المدارس مالياً حيث يسكن الطلاب فيها ويطعمون. وحينما لم يكونوا جياعاً، يقتصدون بصورة عامة.

٤٥- جگرخوين: بالإضافة الى قصائده الملحمية والهجائية والغنائية، فإن جگرخوين اليوم لاجيء في السويد يكتب القصائد وألحان السير على الخطى.

٤٦- كنت أدرس حينئذ اللغة الإنگليزية في الجامعة الأمريكية وحللت مكان الأمير كاميران بدرخان في منصب المذيع الكوردي لإذاعة الشرق. وكنت أهتم أيضاً بتجمع الكورد. وفي الليل كنت والأمير بدرخان ننظم دروساً على شرفهم ونعلمهم القراءة والكتابة باللغة الكوردية.

٤٧- السونه: هذه الحشرة القادمة من جنوب روسيا تهاجم سنابل القمح والشعير ومحاصيل أخرى حينما تكون خضراء وطرية. وتخلصت سورية منها بإيصال القمح الإيطالي (الطلياني) الذي ينضج قبل طيران السونا. بالمقابل لم تستطع تركيا محاربة هذه الآفة التي لاتصيب إلا المناطق الكوردية.

٤٨- رمزي: كان في حالة مؤثرة والإنگليز الذين إمتنعوا عن الحكم عليه، هددوه بعقوبة الإعدام. وبالرغم من تدخل العديد من الشخصيات الكوردية والعربية، لم يُحكم على رمزي كما لم يُعف عنه. وبما أنه لم يستطع تحمل الآلام النفسية والجسدية لإعتقاله، فقد توفي في السجن عام ١٩٤٦ عن عمر يناهز السابعة والعشرين. **(والاصح ان رمزي نافيع رشيد توفي عام ١٩٤٧ في اربيل متأثراً بالامه النفسية والجسدية بعد خروجه من السجن - الناشر).**

٤٩- توفيق وهبي: أستاذ اللغة الكوردية في جامعة لندن.

٥٠- رشدي بيگ: كوردي من تركيا، ولد رشدي هڤيركي في (مادن) حيث أمضى فيها قسماً من طفولته. ولكنني إلتقيته في دمشق للمرة الأولى عام ١٩٣٥. وبعد الثورة الكوردية عام ١٩٢٥ لجأ والده الى العراق حيث أتم رشدي دراسته في الهندسة.

٥١- مير حاج: أطلق سراحه عام ١٩٤٥، وإنضم الى البارزاني ورافقه في تجواله في إيران وفي الإتحاد السوڤيتي.

٥٢- عوني يوسف: كان قد صرح في قراره أن هؤلاء الكورد كانوا يأتون من كوردستان ويذهبون الى كوردستان وإن الحدود التي تفصل كوردستان العراق عن كوردستان تركيا لم تكن سوى حدود إصطناعية. وكانت هذه الكلمات كفيلة بإيداعه السجن.

٥٣- عبدالله شرفاني: كان قد إقترف جريمتين. لكن الإنگليز الذين يخشون تعاطفه مع الألمان، حكموا عليه بالإحتفاظ به في المعسكر بدلاً من أن يكون على رأس القبيلة. وخلال الثورة الكوردية عام ١٩٦١ أصبح عميلاً خطيراً (جحشاً) وهو إسم أطلقه الثوار الكورد على الذين يضعون أنفسهم تحت تصرف القوات العراقية.

٥٤- صديق شنشل: في عام ١٩٥٨، بعد إنقلاب عبدالكريم قاسم وإعلان الجمهورية في العراق، رأيت صديق شنشل ثانية في دمشق. فكشف حينئذ عن مشاعره الكوردية لكنه كتم شوفينيته

العربية. وفي عام ١٩٦٢ أصبح وزيراً في بغداد.

٥٥- الشيعة: لكي يكفر الشيعة عن أنفسهم لأنهم تركوا الأمويين يقتلون إبني علي (إبن عم وصهر النبي محمد -ص)، كانوا يقومون بأداء فريضة الحج في كربلاء. وخلال المسافة كلها كانوا يعاقبون أنفسهم وهم يصرخون: ياحسن! ياحسين! ويجرحون أنفسهم بسلاسل حديدية ضخمة ويضربون أجسادهم بالخناجر. كان هذا التعذيب الجسدي يؤدي بالنتيجة الى مئات القتلى. وبعد دخول الإنگليز الى العراق بعدة سنوات سمحوا أيضاً بهذه الأعمال التي حاول العراقيون خنقها بعد ذلك.

٥٦- كانت الشرطة المتجولة في ذلك الوقت أقوى بكثير من الجيش الذي نقص نقصاً كبيراً لصالح الشرطة ليُظهر عداوته للإنگليز وجهاً لوجه عام ١٩٤١، وكانت الدولة وشركاؤها تعتبر الجيش أكثر ضماناً.

٥٧- في هذا الوقت، فكرت إنگلترا في تأسيس الجامعة العربية وحققت ذلك وأرادت توحد الدول العربية فيها تحت حمايتها. ومن هناك إنبثقت أسباب معارضتها للمطاليب الكوردية.

٥٨- قتال الشرف: علمنا مؤخراً أن القائد البريطاني العام للشرق الأوسط كان قد أصدر إنذاراً للجيوش الفرنسية يلزمها بإيقاف عملياتها العسكرية في ٣٠/أيار/١٩٤٥، فإمتنع الفرنسيون عن إطلاق النار على المدن وسكانها وإستعدوا لمغادرة بلاد المشرق بشكل تدريجي. ولكن جيوشهم وجيوش بريطانيا لم تنسحب بشكل نهائي إلا في نيسان عام ١٩٤٦.

٥٩- البارزاني: في ٧ آب ١٩٤٥ هاجم الجيش العراقي قوات البارزاني لكنه تعرض للهزيمة. وسارع الكورد الى إحتلال مدن عديدة وإتجهوا نحو سهل أربيل. فإختارت القوة الجوية الملكية البريطانية (R.A.F) هذه اللحظة للتدخل وأشاعت الموت في صفوف القوات الكوردية المفتقرة الى الأسلحة المضادة للطيران، فقرر البارزاني حينئذ الجلاء عن شمال العراق واللجوء الى القسم المحرر من كوردستان إيران. وبعد قليل، أُعلنت تلك المنطقة منطقة حكم ذاتي ضمن إطار إيران. ومُنح البارزاني لقب الجنرال (القائد العام) وتولى قيادة القوات المسلحة. وبعد عام كانت القوات الإيرانية المنظمة من قبل الولايات المتحدة تهاجم الجمهورية الكوردية الصغيرة وتدخل الى عاصمتها (مهاباد) حيث قاموا بأعمال وحشية فظيعة وشُنق الرئيس (قاضي محمد) مع بعض المسؤولين الآخرين. أما البارزاني الذي لم يعتمد إلا على قواته الكوردية العراقية، فقد قاوم عدة أشهر وإستطاع العودة الى منطقته العراقية حيث ترك فيها العائلات. وعلى رأس (٥٠٠) مناضل من رجاله، مر عبر تركيا وإيران ليلجأ الى الإتحاد السوڤيتي وبقي فيها حتى عام ١٩٥٨، تلك السنة التي أطاح فيها الجنرال عبدالكريم قاسم بالنظام الملكي في العراق.

٦٠- ظلت هذه الهيئة خاملة فيما يتعلق بالكورد، ولكن في عام ١٩٦٣، وبينما كانت الحرب في أوج عنفوانها في العراق، وكان العراقيون يقصفون القرى والمدنيين بقنابل النابالم. طلبت (منگوليا الخارجية) أن توضع القضية الكوردية في موضع إهتمام وعناية. وهددت الدول العربية

وتركيا حينئذ الإتحاد السوڤيتي بقطع علاقاتها الدبلوماسية معه مالم تلغ منگوليا طلبها فوراً. وهكذا سُحبت القضية الكوردية دون مناقشة.

٦١- في عام ١٩٧٦ فقط إعترف الحزب الشيوعي التركي رسمياً بوجود الشعب الكوردي في تركيا وبشرعية مطاليبه الديمقراطية. وإعترف الحزب الشيوعي العراقي والسوڤيتي بذلك عام ١٩٦٦. ولكن خلال الحرب مابين عامي ١٩٧٤- ١٩٧٥، تحالف مع الحكومة البعثية في بغداد لسحق الثورة الكوردية بقيادة البارزاني. وعلى هذه النقطة ظل حزب (توده) الإيراني في حيرة وإستمر في المراوغة. أما بالنسبة للحزب الشيوعي السوري المتعاون مع الحكومة، فقد ظل صامتاً دوماً حيال سياسة حزب البعث الهادفة الى طرد الكورد من منطقتهم وحرمانهم من الجنسية السورية.

٦٢- في عام ١٩٥٦ وقبل عودتي الى سورية وأنا على إقتناع بضرورة تأسيس رابطة الطلاب الكورد في أوروپا، تضم عدة مئات من الأصدقاء.

٦٣- كنت قد إخترت موضوعاً فلسفياً بعنوان (دراسة نقدية لمفهوم الإلتزام لدى عمانوئيل مونييه) عام ١٩٥٧- مطبعة دورز- جنيف.

٦٤- الفلقة: نوع من التعذيب المنتشر في الشرق الأوسط واليونان، ويكون بربط القدمين بحبل مربوط بعصا، ويُشدّ الحبل على القدم ثم يُضرب على أخمص القدمين.

٦٥- سجن الباستيل السوري: بُني عام ١٩٢٧، وأثناء ترميمه وتحسينه، تواصلت أعمال التعذيب من قبل السلطة المنتدبة. ومنذ عام ١٩٥٨، أصبح عبدالناصر ومنفذ أوامره في سورية (عبدالحميد سراج) أكثر شراسة وإسم هذا السجن أكثر إثارة للرعب.

٦٦- خلال حكم عبدالناصر أصبح الوضع الإقتصادي في سورية مأساوياً، حيث غزت المنتجات المصرية الأسواق السورية. ولكن حسبما رأى السوريون فإن سياط المباحث كانت تباع بشكل كبير. وكانوا يستخدمونها كثيراً حينما يتوجب تجديد البضاعة المخزونة.

٦٧- في سجون المباحث كان يجب على السجناء تأمين إحتياجاتهم بوسائلهم الخاصة وإلا ماتوا جوعاً لأنهم مرغمون على أن يرضوا بكسرات من الخبز، وفي أحسن الحالات يعتمدون على كرم السجناء الأقل فقراً.

٦٨- كوردستان بلاد مجزأة: كتاب ألفه كوردي عراقي وطُبع في إنگلترا. كان يحتوي على فصل يشرح الطريقة الواجب إتباعها في كل دولة تضم كوردستان، للوصول تدريجياً وبسرعة الى إنشاء دولة كوردية مستقلة.

٦٩- الماء: خلال شهر أيلول كله، كان السجن محروماً من الماء الجاري بسبب معرض دمشق الدولي الذي كان يستهلك قسماً كبيراً من مياه المدينة ليغذي أحواضه ونوافيره التي لاتحصى. وخلال هذا الوقت كانت أحياء عديدة في دمشق محرومة من المياه.

٧٠- الدروز: بالرغم من إنهم يعتبرون أنفسهم مسلمين، فهم في الحقيقة بعيدون عنهم كل البعد. وبعد بضعة أشهر بُرئت ساحتهم تماماً حيث لم يكن هناك أي دليل مادي على تعاونهم مع

إسرائيل. في غضون ذلك لقي درزيان مصرعهما تحت التعذيب وعاش حوالي ثلاثين منهم في الهم والقلق ثمانية أشهر من السجن الإحتياطي.

٧١- كنت قد كتبت: "أنا في سجن المزة لأنني كوردي. وطالبت بالحقوق الشرعية للكورد الذين يعيشون في شمال الجمهورية العربية المتحدة. ولكي لايمارس مثل هذا التمييز العنصري والظلم في المستقبل ولتتعزز الأخوة التاريخية الكوردية- العربية، أطلب من الدستور الجديد إقرار هوية الشعب الكوردي وحقوقه الثقافية كلها".

٧٢- علي عيسى: كان علوياً. ويشكل العلويون النُصيريون طائفة شيعية بعيدة عن الإسلام المستقيم كل البعد. وكانوا قد خضعوا كبقية الطوائف الدينية الأقلية والسلالات المعربة كالدروز والإسماعيليين أو اليونانيين الأرثوذوكس، تحت لواء القومية العربية، وذلك منذ الحرب العالمية الثانية، إندفعوا بطريقة جامحة على المزاد العلني للعروبة المتزمتة والعنيدة. ونجح حزب البعث أيضاً في ترسيخها في نفوس المثقفين من هذه الأقليات. وتميز أعضاء هذه الأقليات غالباً بحقدهم تجاه الكورد وهم بذلك يريدون أن يكونوا قوميين أكثر من العرب المسلمين السنة.

٧٣- العربية: وهي جريدة رابطة الطلاب العرب في سويسرا. ثم أصبحت رابطة الطلاب العرب في أوروبا.

٧٤- صلاح الدين: عاش صلاح الدين الكوردي خلال إقامته في دمشق في إحدى مقصوراته وتوفي فيها.

٧٥- تتسامح المحاكم في أغلب الأحيان بخصوص القتلة من هذه الفئة، فمثلاً، شاب حائز على شهادة البكالوريا، كان قد قتل شقيقته (الفاجرة) ولم يُحكم عليه بالسجن إلا ثلاثة أعوام.

٧٦- أم عدنان: إعتاد العرب على تسمية الرجال المتزوجين الذين يعرفونهم والذين لديهم أولاد بإسم ولدهم الكبير مضيفين إليه كلمة (أبو) والمرأة تصبح (أم). وحينما يكون الزوجان بلا أولاد أو صبي، تضاف (أبو) و(أم) للإسم الأول لوالد الزوج. وغالباً ما يكون كورد البلاد العربية مرغمين على الخضوع لهذه العادة. وبدلاً من الألفاظ العربية، يستبدلونها أحياناً بمثيلاتها الكوردية (باڤي-أبو) و(ديا- أم).

٧٧- لم تكن الخالة زهرة من جهة أمها خالتي، ولكنها كان صديقة وفية، وكانت إبنة حفيد الأمير بدرخان. وكانت والدة وجدة الخالة زهرة قد تزوجتا لبنانيين من أصل كوردي. وبالرغم من أنها ولدت في لبنان وتزوجت من لبناني، فإنها حافظت على لغتها الأم وعاداتها الكوردية بعناية قصوى.

٧٨- حسبما يرى (جان پيير آلم) في جريدة (لبنان) مطابع فرنسا الجامعية، قد يكون عدد كبير من العائلات الدرزية بما فيها عائلة جنبلاط وأرسلان من أصل كوردي.

٧٩- إعتنى المركز الإجتماعي بالعرب والكورد. أما بالنسبة لنشاطات المركز الثقافي فقد إتسعت كثيراً ولكن الحرب الأهلية اللبنانية أعاقت مسيرته.

٨٠- لقد كانت هذه الخطة قد أنجزت بدقة لولا إن الإتحاد السوفيتي أطلق تحذيراً لإيران وتركيا بعدم التدخل في شؤون العراق الداخلية. ووقف في وجه البعث بسبب مذبحة الشيوعيين العراقيين.

٨١- كنت أعرف (دانا شميت) شخصياً وهو مراسل صحيفة (نيويورك تايمز) في الشرق الأوسط، وكذلك (ريچارد أندريگ) مراسل الإذاعة السويسرية - الرومانديه. كان الإثنان قد رحلا في وقت سابق الى كوردستان العراق وجلبا مقالات وأفلاماً للتلفزيون بالإضافة الى مسودات كتب. وفي ربيع عام ١٩٦٢، إستطعنا أن نُدخل (دانا شميت) الى كوردستان العراق عبر سورية، بينما كان (ريچارد أندريگ) قد ذهب إليها عن طريق إيران. وأصدر كتاباً رائعاً طُبع في الولايات المتحدة بعنوان (بين رجال شجعان)، إستند فيه على ملاحظاته وصوره أثناء الرحلة.

٨٢- في نهاية شهر حزيران، كانت وحدة سورية على اليرموك مؤلفة من عشرة آلاف رجل ، قد إنسحبت من الحدود الإسرائيلية بقيادة الجنرال (فهد الشاعر) لينقل دعمه الى القوات العراقية. وبعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأرواح والمعدات توجب عليها الإنسحاب من المعركة والعودة الى سورية في منتصف كانون الأول عام ١٩٦٣.

٨٣- كان من بينها كتابان كنت قد نشرتهما في بيروت سراً. أحدهما بعنوان (حرب الحرية) وهي ملحمة بالكوردية عن الثورة الكوردية في العراق وتحتوي على ترجمة بالعربية. أما الكتاب الثاني فهو (المسألة الكوردية والصحافة العربية)، كان يضم مقتطفات مما نشرته الصحافة اللبنانية والمصرية عن أحداث العراق وتنتقد سياسة السلطة في بغداد.

٨٤- صلاح جديد، أمين سر الإدارة الإقليمية لحزب البعث ونورالدين أتاسي رئيس الجمهورية.

٨٥- في عام ١٩٦٧ وأثناء حرب الأيام الستة، عاد سليم حاطوم الى سورية يرافقه بعض الضباط الذين كانوا أوفياء له. وحينما أراد الإستيلاء على السلطة، أُعتُقل وأُعدم قبل أن يتمكن من الدخول الى دمشق.

٨٦- لدي في تركيا شقيقتان وأخ واحد. وفي عام ١٩٦٨ أُخبرت في بيروت عن وفاة أخي الأكبر (نافذ)، فأراد أخي (ريزو) أن ندفنه في كوردستان تركيا. وأخيراً وتحت ضغط كورد سورية دُفن أخي في أحد الأماكن المرتفعة (لدى السلطات العليا) للقومية الكوردية في سورية.

الفهرس

كوردستان تركيا: 3
- ولادة وطفولة حتى سن العاشرة.
- الحياة اليومية لعائلة كوردية.
- عادات الشعب الكوردي في تركيا.
- حالة كورد تركيا في عهد الإمبراطورية العثمانية وفي عهد مصطفى كمال.
- القمع والإضطهاد.

سورية- حلب ودمشق والجزيرة: 45
- ظروف كورد سورية تحت الإنتداب الفرنسي.
- نهضة الوعي القومي.
- حياة كورد الجزيرة.
- الصراع اليومي لطبيب كوردي ضد المشعوذين والجهل والمرض
- أولى النشاطات القومية الكوردية.
- تسلل من قطار سائر عبر منفذ تركي الى الأراضي السورية.
- تجربة الزراعة

العراق ولبنان: 80
- إثنا عشر شهراً في السجون العراقية، من الموصل الى بغداد.
- إضرابان عن الطعام.
- الحياة اليومية في سجون العراق وفي معسكر الإعتقال (عمارة).
- السجناء الكورد والعرب والأوروپيون
- وضع البارزانيين والكورد تحت الإنتداب الإنگليزي
- دراسات في بيروت وإفتتاح مدرسة ليلية للمهاجرين الكورد في لبنان

سويسرا: 100
- دراسات في جامعة لوزان.
- دكتوراه في العلوم الإجتماعية والتربوية.
- نشاطات لصالح القضية الكوردية.
- تأسيس رابطة الطلاب الكورد في أوروپا.
- رابطة الطلاب الكورد في أوروپا في مواجهة الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط.
- نتائج ندوة فنية مشهودة لناظم حكمت.

سورية: 106
- سورية في عهد ناصر.
- الكورد في مواجهة البعث والشيوعيين.
- تأسيس الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية.

- توقيف.
- سجن وتعذيب (في حلب و دمشق).
- من فائدة السياط.
- النائب العسكري ينذر بالاعدام الذي يخفف الى عام واحد من السجن بفضل المطالب الدولية.

سورية: 138
- التعود ثانية على الحرية.
- انهيار وحدة مصر وسورية.
- تجربة الترشيح للپرلمان السوري.
- العودة الى السجن.
- انقلاب ووصول حزب البعث الى السلطة.
- حياة سرية لعدة أشهر لدى أسر كوردية في دمشق.

لبنان: 153
- الفرار نحو لبنان.
- الحياة اليومية للجالية الكوردية في بيروت.
- مهمة الإعلام بصدد الحرب في كوردستان العراق إزاء الصحافة اللبنانية.
- إعتقال وسجن في بيروت تحت ضغط الحكومة العراقية.
- الطرد الى الأردن ثم التسليم الى سورية.

سورية: 169
- سبعة أشهر في حجرة منفردة في سجن الشيخ حسن في دمشق.
- الحياة اليومية مع ألوان التعذيب بين سجناء "الإخوان المسلمين" والبعثيين وآخرين.
- النفي الى جبل الدروز
- تحت المراقبة والإقامة الجبرية في دمشق

تركيا: 181
- الهروب الى تركيا سيراً على الأقدام وعبر حقول الألغام
- كوردستان تركيا بعد ثلاثين عاماً من اللقاء مع العائلة
- أسطنبول في حالة شبه سرية
- فقدان الجنسية التركية
- الفرار الى أوروپا
- اللجوء السياسي في سويسرا ثم المواطنة السويسرية

كوردستان والكورد: 197
الأدب الكوردي: 204
الهوامش: 211

حياتي الكوردية أو صرخة الشعب الكوردي

"حياتي الكوردية" مغامرة إنسانية كبيرة، إنها سيرة حياة شخصية لكاتب وزعيم سياسي ضحى بكل شيء من أجل القضية الكوردية، وتألم في فكره وجسده ليتمكن شعبه من التمتع بالحقوق الإنسانية والثقافية الأصلية والثابتة، وذلك منذ عهد الإمبراطورية العثمانية الى أيامنا هذه.

"حياتي الكوردية" هي ايضاً وثيقة سلالية حول المجتمع الكوردي من كوردستان تركيا الى المناطق الكوردية في سورية، ومن العراق الى لبنان، هذا المجتمع الذي يخضع اليوم لسياسة خطيرة للتمثيل الإجباري والإبادة الجماعية أكثر من أي وقت مضى.

هذا الكتاب هو تاريخ أمة بسهولها وجبالها السحرية، وهو ذاكرة الشقاء والعذاب، وهو ايضاً لوحة جدارية إنسانية حقيقية وأكثر من (١٢٠) شخصية كوردية وأرمنية ويهودية ويونانية وعربية ودرزية وتركية وفرنسية وسويسرية وآخرين كانوا ضحايا وجلادين.

أخيراً "حياتي الكوردية" شهادة مباشرة على الحياة اليومية في سجون الشرق الأوسط.

هذه الرواية للسيرة الذاتية متَمّمة بلمحات تاريخية وأدبية ومرفَقة بمصوَر كوردستان وبسلسلة من الصور الأصلية الجديدة.

- ولد نورالدين زازا في كوردستان العثمانية التي تدعى تركيا حالياً.
- واجه المأساة الكوردية في السادسة من العمر مع قدوم مصطفى كمال.
- سجن والده وشقيقه.
- في العاشرة من العمر أصبح يتيماً ولجأ الى سورية حيث درس اللغة الفرنسية في دمشق.
- حاول الإنضمام الى الزعيم (البارزاني) الذي ناضل ضد الإنكليز والحكومات العراقية للحصول على الحكم الذاتي.
- سجن سنة واحدة قبل إكماله دراساته في الجامعات الفرنسية والأمريكية ببيروت.
- درس العلوم الإجتماعية والتربوية في جامعة لوزان ومنها حصل على شهادة الدكتوراه.
- أسس رابطة الطلاب الكورد في أوروپا قبل العودة الى دمشق.
- عندما عاد الى دمشق أسس فيها الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، وأصبح أول رئيس للحزب، مما أدى الى إعتقاله مجدداً حيث عُذّب وحُكم عليه.
- في عام ١٩٦٧ عاد الى مسقط رأسه في كوردستان تركيا، لكنه اضطر الى الفرار منها ثانية من ألوان التعذيب التركية.
- لجأ الى لوزان ودرّس فيها، وأصبح سويسرياً.